

اقرأ

مع الوليد



على الجارم

دار المعارف بمطبعة

مَسْرَعُ الْيُولِيدِ

على الجاهل

مَرَجَ الْوَلِيَّ

اقلاً

٦٢

دارالمعارف بمطو

اقراء ٦٢ الطبعة الثالثة

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.٢٠

نصيح وعناد

قصر راسخ القواعد ، شامخ الذرا ، رسا أصله فوق شرف
عال من الأرض ، وارتفعت قبابه في الجو كأنها تطلب شيئاً
في السماء . وقد موهت بالنضار ، وسطع عليها الأصيل ،
فأرسلت شعاعاً كان أجمل من الأصيل ، وأبهى من خالص
النضار . وامتدت حول القصر البساتين الفيح تجري بها الجداول
بطيئة متعثرة ، كأنها تخشى أن تلتقى بنهر برّدى فيلتقمها زخاره
الخضم ، ويدور بها كالمذعور فيقتحم كل دار وينفذ من كل
حائط . ورفت بها الأزهار رائعة الألوان ، مسكية الشذا ، وقد
عبث بها النسيم فراحت تختبئ في أكمامها كأنها الغيد الحسان
خافت خائنة الأعين ، وفضول العاشقين . وماست أشجار الحور
كأنما شجاها تغريد الطير فوقها ، فأخذت تسارق الأنغام ،
وتساير زين الإيقاع .

ذلك مشهد يجب أن يرى حتى يُعرف ، ويجب أن تراه
عين فنان لتدرك بعض ما به من جمال وروعة . أما القلم ، وأما
اللسان ، فأعجز من أن يصلا فيه إلى صورة ، أو شبه صورة ،

تقربها العيون ، أو تطمئن لها النفوس . يقولون إن اللغة أداة البيان ، ويقولون إن اللغة بريد العقول ، فهل هي أداة البيان حقاً ؟ وهل هي بريد صادق يحمل ما في نفسك إلى نفس غيرك ؟ إن من ضروب الأحاسيس ما يدق عن متناول اللسان ، ويستعصى على سنان القلم . وإن من الصور الغريبة الألوان الغريبة التركيب ، ما يعجز الوصف ، ويخرس البيان . ولن يملك المرء إزارآها إلا أن يصيح : هذا باهر ! هذا جميل ! هذا فاتن ! وكأنه يريد أن يقول شيئاً آخر فلا يستطيع . وستبقى الإنسانية هكذا عجماء حتى توفق إلى وضع كلمات جديدة تترجم عن كل ما تراه العين ، ويجيش به الوجدان . ويكفى أن أقول إن هذا المنظر كان ربوة الوادي بالجناب الغربي من دمشق ، وإن هذه الربوة ، تزدان بأبداع ما طرّزته يد القدرة على هذه الأرض من محال ، وإلّاها إلى جنة الخلد أشبه بالمطلع إلى القصيدة ، أو بالمقدمة إلى الكتاب ، وهي التي حينما رآها عمر بن الخطاب عند قدومه إلى الشام قرأ قوله تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين » .

هذه هي ربوة دمشق ، وهذا هو قصر الوليد بن يزيد ، زكان يسمى قصر « حبابة » ، بناه يزيد بن عبد الملك الخليفة

الأموي لجاريته « حبابة » وأنفق فيه كثيراً من كنوز الدولة ، وقام على بنائه وزخرفته كبار مهندسي الروم ، فبجاء صورة للفن الرائع ومظهراً لفخامة الملك ، بصيلة السلطان .

وفي أحد أيام شوال من سنة ثلاث وعشرين ومائة ، جلس ببعض أبهاء هذا القصر يزيد بن الوليد ، ويزيد بن عنبسة ، ومحمد بن شهاب الزهري ، ويزيد السلمي ، وقد طال بهم الإطراق ، ودلت أسارير وجوههم على ما تنطوي عليه أنفسهم من أمر عظيم ، وهم دفين . وبعد لأي رفع الزهري رأسه ، وكان من كبار المحدثين ، وأعلام التابعين ، عظيم المنزلة في الدولة لعلمه وبرعه ، وقال :

— لست أدري لم بعثنا الخليفة هشام إلى هذا الرجل ، وهو يعلم أن انتقال جبل « قاسيون » من مكانه أهون وأيسر في إدراك العقول من هدايته وزخرفته عما هوفيه من عبث ؟ لقد حدثته مراراً ، وسقت إليه كثيراً من أقوال الرسول الكريم ، ووعظته فأطلت الوعظ ، فما كان يزيد كل هذا إلّا تمادياً ، حتى كأنني كنت أغريه بلومي ، وأثير فيه شيطان الغرور بمواعظي ، « ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » . صدق الله العظيم . فرفع إليه يزيد بن الوليد بصره ، رقاداً ثم وجهه عن ضجر واشمئزاز ، وقال :

— إن الأمر يا أبا بكر لو اقتصر على فتي سادر لكان وقلبت نوازله ، ونخفت أوزاره ، ولكنه أمر أسرة كريمة المنبت في الجاهلية والإسلام ، وشأن دولة تحمل أعباء الخلافة ، وتحمل صخرة الدين أن تنهار ، بعد أن بسدت جهود وعقول في إرسائها ، وحطمت سيوف في توطيد أركانها . والشيخ يرى ما تنهض به دولة بني أمية كل يوم من أعباء ، وما تشد من عزائم . فجيوشها لا تكاد تقفل من العراق وخراسان ، حتى تسير إلى أرمينية وأرض الروم ، فهي أبداً صائفة شاتية . وسيوفها لا تكاد تقرر في أغمارها ، حتى تستل من جديد ، ولا تكاد تجف دماؤها من قهر خارجي ، حتى ينبع لها خارجي من أقاصي الأرض ، كأن الأرض أجذبت من كل نبات إلا من هؤلاء المناكيد . وإذا أسكتنا زئير أهل خراسان ، أطلت علينا ثورة في المدينة ، ومدت رأسها فتنة بالعراق . فإذا لم تكن أزمّة الدولة في يد جريئة حازمة ، ولم يصرف شؤونها رجل داهية باقعة لم تستعبده الدنيا ، ضاعت الدولة بدداً ، وكانت حرضاً . وهذا الوليد بن يزيد الذي بعثنا اليوم هشام لنصحته ودعوته إلى الكف عن لهوه ، لو كان فتي من فتيان بني أمية لا يرتبط بالخلافة ، ولا يتصل بسياسة الحكم بسبب ، لصرفنا عنه وجوهنا آسفين محزونين ، ولقلنا شاب أطغاه المال والشباب والحسب ، فراح ينتهب لذات

الحياة ، وإن له لغاية هو مدركها ، وأجلاً هو موفيه ، ولحظة ندم بهم أن يعتصم فيها بالتوبة فلا تنفعه التوبة . ولكن يأتي القدر إلا أن يكون الوليد هذا ولي عهد الخلافة ، وتأبى الأيام السود إلا أن تعده ليجلس حيث كان يجلس عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز . ويا ويل الخلافة ، ويا ويل الإسلام إذا ألقيت مقاليد الحكم في يد هذا الرجل ! وإننا إذا جئنا اليوم لنكفه عن شهواته ، أو لنصلح من نفسه — إن كان ذلك الإصلاح مستطاعاً — فإنما إلى صون الخلافة نقصد ، وحماية الملك نريد . فتحرّك يزيد بن عنبسة في قلق المغيظ المحقق ، وقد كان قبل ذلك يعتمد برأسه على قائم سيفه حزينا واجماً ، وقال :

— إن الله يريد لهذا الملك أمراً هو قاضيه ، فإننا ما كدنا نبهج بموت أبيه يزيد بن عبد الملك ، وقيام خلافة هشام بعده ، حتى دهمتنا المقادير فحتمت علينا أن يكون هذا الفتى ولي عهد هشام . لقد كان يزيد مسرفاً على نفسه ، قسم أيامه وأمواله بين سلامة القس المغنية ، وحباة اللعوب ، وبني لحباة هذا القصر الشامخ الذي نجلس فيه اليوم ، وأنفق عليه من الأموال ما كان يكفي لغزو الصين ، وكل ما وراء البحر الأخضر من ممالك . ولكننا نحمد الله على أن عهده لم يطل ،

وأن هلاكه كان وشيكاً ، وكثيراً ما يكون الموت علاجاً إذا
أعضل الداء ، وعزّ الدواء . كانت خلافته أربع سنين كادت
تهوى فيها الدولة إلى الخضيض ، لولا قوة فيها كامنة من عزمات
صلاب وطّدت أساسها من عهد قديم . وكأنه أراد أن يصل
حباله بحبال ابنه فلم يمت حتى عهد بالخلافة بعده إلى هشام ،
ثم من بعد هشام إلى هذا الفتى . وإن أخشى ما نخشاه بعد
أن أعاد هشام إلى الخلافة عظمتها ، وغرس في القلوب الرهبة
منها ، وأقام عمودها ، وحرص على جمع الأموال لسد
مفاقرها ، أن يأتي بعاه هذا الوليد فيمحو آثارها ، ويبدد
قوتها ، ويمكن منها أعداءها القاعدين لها كل مرصد ،
والتربصين لها الدوائر ، والمتحرقين إلى فرصة يمزقونها فيها أشلاء ،
ويأتون على بنيانها من القواعد . وليس لدينا من الرجال اليوم
ما كان لنا والدولة في عنفوانها ، والملك في قوة اكتماله . فليس
لنا مثل مسلم بن عقبة ، وليس لنا مثل الحجاج بن يوسف ،
وليس لنا مثل قرة بن شريك . فإذا وقعت الواقعة ، وحلت
الفادحة ، وتركت الدولة في أيدي خائرة لم تجد بين الدافعين
عنها إلا بناناً مخضباً ، ومعصماً أدماء السوار . وويل لدولة تحميها
النساء ! فأسرع الزهرى يقول :

— لقد حاول يزيد بن عبد الملك أن يخلع هشاماً من ولاية

العهد ، وأن يقدم ابنه عليه لولا أن أدركه الموت من حيث لم يكن يتوقع . ولو أنه فعل لكان للمسلمين اليوم حال غير تلك الحال . وهنا اتّجه يزيد بن عنبسة إلى السلمي وقال :

— مالك لا تنازعنا الحديث أبا مساحق ؟ إن أكبر الظن أن كلامنا يثقل عليك ، فلقد رأيت سحابة غيظ تركد على وجهك منذ دخولنا . وإعلاك لم تكن تتوقع أن يزور صاحبك اليوم قوم غلاظ شداد يصارحونه القول ، ويدعونهم في عنف إلى تقوى الله ومخالفة نفسه . فقال الزهرى :

— إن السلمي كان معلم الوليد ونصيحه ، وكان الأجدر به ، وقد قضى في الإشراف على تهذيبه سنوات ، أن يقوم قناته ، وأن يصرف عنه شياطين الفتنة ، فإنه لو فعل لأغنانا اليوم عن لقاء هذا الفتي وجهه بما يكره . والله لولا أن ألح على الحقيقة وألحف في وجوب القيام بنصيحه ، ما نقلت إلى داره قدما . فقال يزيد بن الوليد :

— ومن لهذا الأمر سواك يا ابن شهاب وأنت اليوم مناط هذه الأمة في أمور دينها ؟ ولقد كان عمر بن عبد العزيز ناصحاً للمسلمين حين كتب إلى عمّاله في الآفاق يدعوهم إلى الأخذ بأرائك في الدين ، ويقول لهم : إنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية من ابن شهاب . فهد الزهرى يده إلى يزيد

كالمتوسل إليه أن يكف عن هذا المديح ثم قال :
 — أرسل إلى الخليفة إبراهيم المخزومي بعد أن انفتلت من صلاة
 الغداة فقال : إن أمير المؤمنين يدعوك إليه الساعة . فذهبت معه
 على ثاقل وكره ، فلما حضرت مجلسه أقبل على كاسف النفس
 حزينا ، وكان ولداه مسلمة والعباس واقفين في خدمته ، ثم
 قال : اقرب مني قليلا أبا بكر . فقربت وسادتي من وسادته ،
 فاتجه إلى وقال : إني نظرت يا ابن شهاب في أمري وأمر هذا
 الملك الذي أسوسه ، والأمة التي أرحاها ، فرأيت أني أسير إلى
 الفناء وثباً ، وأعدو نحو الموت عدوا ، فإن هذه الذبحة ما زالت
 تعتادني بين الحين والحين ، وقد استطعت حتى الساعة أن أنجو
 منها بذلك الدواء الذي أتجرعه ، ولكن نوباتها أخذت تتقارب
 وتطول ، وأخشى أن أكون مائتاً بعد أيام أو أشهر . وقد بذلت
 كل ما في قدرة رجل مثلي لإسهاض الدولة وتمكين سلطانها ،
 ولو كنت أعلم أن الذي يلي هذا الأمر من بعدى رجل حمال
 للأعباء ، شديد على اللأواء ، كامل الرجولة ، طاهر النفس ،
 نقي الجيب ، يخاف ربه ، ويخافه عدوه ، لكان على الأمر
 واستقبلت الموت سعيداً رضيعاً . ولكن الخلافة ستنتقل إلى ابن
 أخي الوليد ، وهو — كما علمت وعلم أهل الحضر والمدن — قد
 نسي نفسه ، ونسى حسبه ، وانصرف إلى جلساء السوء . فماذا



يكون من أمر هذه الأمة إذا وليها هذا الفتي ؟ وماذا يكون من أمر أطراف الدولة ، والثورات فيها لا تنطفيء نيرانها ، ولا يركد قتامها ؟ وماذا يكون من أمر ملك بقي إلى اليوم أكثر من ثمانين عاماً تؤثله جبايرة الأمويين بآرائهم وسيوفهم ؟ لن يبق من ذلك شيء ، وستتمزق فلول بني أمية في البلاد حيارى مطاردين ، يحسدون رعاة الإبل في الصحارى الجرد على ما هم فيه من رخاء ونعمة . لقد بذلت كل ما في وسع بشر لإصلاح هذا الرجل ، فلم ألق نجحاً . وكان من آخر أمري أن وليته الحجج بالناس لأصلح من سيرته وأغريه بتقوى الله إغراء ، فكان منه ما علمت وعلم الناس . والآن وقد ضاقت بي الحيلة ، أدعوك لتذهب إليه أنت ويزيد بن الوليد وابن عنبسة ، لتبصروهم بما يجب عليه إزاء الله ، وإزاء الخلافة ، وإزاء نفسه ، ولتخبروه بأن صلاحه لن يكون له وحده بل لهذه الأمة التي نخشى أن تذهب ضياعاً ، وتصبح نهباً مقسماً . هذا يا أبا بكر آخر سهم في كنانتي ، فإن أجاب وأطاع هدأت نفسي ، وإلا فله أمر هو فاعله . اذهب الآن مباركاً موفقاً ، وقد أمرت يزيد بن الوليد وابن عنبسة أن ينتظراك لدى الباب .

وكان طول الحديث قد أجهد الزهري فأخذ يرسل أنفاساً قصاراً متلاحقة ، ثم قال وهو ينظر إلى السلمي :

— وهكذا جئنا أبا مساحق لنروّض هذا المهر الحرون ،
حتى يسلس قياده ، وإني أرى في ملامحك ما يدل على الاستنكار
والمخالفة ، فهل لديك من شيء يقال ؟

— لقد أطلت الحديث ، وسلكتم فيه فنوناً ، ولكنكم اتجهتم
اتجاهاً واحداً ، ونظرتم إلى الرجل من ناحية واحدة ، فصورتموه
كما شاءت نفوسكم لاهياً مرحاً تسلب من صفات الرجولة ،
وقطّعت كل صلة بينه وبين الخلق الكريم ، وهذا تصوير مائن
أيها البررة الأتقياء . إني خالطت الوليد منذ كان غلاماً في الحادية
عشرة ، وهو الآن يجاوز الثلاثين ، خالطته خلط معاشرة
واختبار ، وسبرت غور نفسه ، وعرفت ظاهر أمره وباطنه ،
فأريت أنه سر آبائه جميعاً ، ففيه دهاء مروان بن الحكم وشغفه
بالانتقام ، وفيه تيه عبد الملك وكبرياؤه وصدق عزيمته ،
وفيه عناد أبيه وضعف نفسه . ثم إن به عرقاً من أخواله بنى
هاشم أمدّه بالبلاغة وإجادة الشعر ، وذال له سبيل التمكن من
اللغة ومعرفة الأخبار . إنه ابن آبائه حقاً ، ورثهم في الجاه والمال
والخلافة ، كما ورثهم في الجبلة والخلق ، وفيما يزين وفيما يشين ،
إنه حقيبة من وراثات مختلفة متباينة : فيها الخير وفيها الشر ،
وفيها ما يسوء وفيها ما يسر . وأشهد إني ما رأيته يقرأ القرآن
أو يدرس أحاديث النبي الكريم إلا متطهراً متطيباً جالساً على

ركبتيه في خشوع ورهبة . وأشهد إنه طالما حدثني عن نفسه
وما ينساق إليه من هفوات الشباب ، والدموع تنهمر من عينيه ،
والحزن يملأ جوانب نفسه . وكثيراً ما كان يقول وهو في تلك
الحال : وماذا أفعل وقد خلقت ريشة في مهب الأهواء ، وقصبة
جوفاء في بحر مائج بالفتنة والإغراء ؟ ثم يرفع رأسه إلى السماء في
رعب وضراعة وهو يردد : اللهم إنك إنما سميت الغفور لأنك
تغفر لمثلي . وسميته مرة وقد اجتمع بفتية من بني أمية وهو يقول
لهم : يا بني أمية ، إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ، ويزيد في
الشهوة ، ويهدم المروءة ، ويشور ثورة الحمر ، ويفعل ما يفعل
السكر ، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء ، فإن الغناء رقية
الشیطان . إني لأقول ذلك فيه على أنه أحب إليّ من كل لذة ،
وأشهى إليّ من الماء البارد إلى ذى الغلة ، ولكن الحق أحق أن يقال .
فأسرع ابن عنبسة يقول :

— أخشى يا أبا مساحق إذا طال بنا المجلس أن تزعم أن

صاحبك من الملائكة الأطهار .

— لا يا ابن أخي إنه ليس من الملائكة الأطهار ، إنه قد

يكون أحياناً عبد نفسه إذا جمحت به أرخی لها الغنان وتركها
تسير به إلى حيث تريد . ولكني أقول إنه رجل له جانبان ؛
جانب للخير يظهر فيه نبلة وكرم عنصره وطهارة عرقه ، وجانب

للشر يرحل فيه العقل ، وتنحل العزيمة ، ويختفى الوليد الشريف
الكريم ، ويأتى الوليد الظريف المرح . وربما كان فى انقياده
إلى نوازع نفسه لا يزيد عن أمثاله من الفتيان الذين خلقوا على
غرار فطرته ، ولكن الوليد أضاف إلى ما فيه من ضعف العزيمة
ما طبع عليه من العناد والتحدى والتباهى بازدراء آراء الناس ،
وعدم المبالاة بلوم اللائمين . فلم يُراءِ كما يراءون ، ولم يخف
الرقباء كما يخافون ، بل قال ما يقول فى علانية وسخرية ، وكشف
ذات نفسه لأعدائه وأصدقائه فى غير خوف أو حذر . ومما أكثر
فيه القالة شغف الناس بالأقاصيص وغرائب الأخبار ، فهم
إذا نقل إليهم كاذب أنه شرب كأساً لم يرقهم أن ينقلوا الخبر
كما هو . وأى طرافة فى أن يشرب شاب كأساً محرمة بعد أن
فسد الزمان ؟ فراحوا يقولون إنه شرب باطيتين حتى انتفخ بطنه .
وهنا ابتدره ابن عنبسة فقال :

— إن الناس لا ينقلون إلا ما يسمعون من غلمان القصر
وجواريه . وقد بلغنى أنه اصطنع بركة فى هذا القصر ، وملاًها
خمرًا ، وأنه إذا استخفه الطرب ألقى فيها بنفسه وأخذ يكرع ،
حتى يبين النقص فى أطرافها .

— هذا اختلاق مائن ، وإفك كاذب . فالوليد أبغض الناس
للقدر ، أو ما فيه احتمال القدر ، وهو لحرصه على النظافة لا يشرب

من إناء شرب منه غيره . ثم كيف يستساغ في العقل أن يشرب من البركة حتى يظهر النقص فيها ؟ إنه لو فعل لكان اليوم من الهالكين ، واسترحنا من الجدل في شأنه . وهذه الفرية البقاء لا تقل في بشاعة كذبها عما يتناقله الناس من أنه أراد يوماً أن يتفاهل ، ففتح المصحف ، فكانت أول آية تقع تحت عينيه قوله تعالى : « واستفتحوا ونخاب كل جبار عنيد » . فقد قالوا إنه غضب عند ذلك وعربد ومزق المصحف وقال :

أتوعد كل جبار عنيد ؟ فيها أنا ذاك جبار عنيد !
 إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد
 ويكفي لتفنيد هذا الهراء أني أعلم وأنكم تعلمون أن العرب على ولوعها بالتفاؤل ، لا تتفاهل بالمصاحف ، ولا بما يدون في الكتب ، فإن ذلك لم يكن من عاداتها منذ خلق الله الصحراء والجمل .
 وأكبر الظن عندي أن هناك ثلاث طوائف تعمل على الكيد لبني أمية كلهم لالوليد وحده ، وأنها تبذل الجهد ناشطة لإسقاط الدولة ومحو آثارها . وهذه الطوائف هي طائفة الناقمين من غير العرب بعد أن أذهم بنو أمية ، وقضوا على عزمهم ومجدهم ، وأنزلوهم بدار الهوان والاتهاس . وطائفة بني العباس الذين يدعون « لمحمد بن علي » والذين ربضوا بخراسان متربصين ، يتحينون الفرصة للوثبة ، وينشرون جواسيسهم وعمالهم في البلاد ليبثوا

في الناس كراهية الخلافة ورجال الدولة ، ويزيدوا عنهم خروجهم
على الدين واحتجابهم الأموال وتبديدها في اللهو والنعم . وهناك
شيعة على بن أبي طالب ، الذين يجتذبون الناس بزهدهم ،
ويستدرون عطفهم بما أوقع بهم بنو أمية من القتل والتشريد ،
هؤلاء جميعاً يعملون كادحين لإسقاط عرش الأمويين . وقد
وجدوا في الوليد منبعاً فياضاً لإشاعة الأكاذيب ، وابتداع
الأخاليق ، وراحوا يهولون في كل ما يبدو منه من هو . فإذا لم
يصدر عنه شيء رسم خيالهم أبشع الصور ، ولفق لهم أسوأ
الأحاديث . وهنا التفت إليه الزهري وقال :

— عجيب أمرك يا ابن مساحق ، تعترف بعث صاحبك
ثم تدفع عنه ، وحينما ترى أن حجتك لا تنهض بجناح ، تحاول
أن تنقل الأمر من الوليد إلى بني أمية عامة ، ثم إلى ما يحيط
بهم من أحداث وأعداء .

— لا يا أبا بكر إنني إنما أنكر على الناس تعصبهم عليه ،
وتأليبهم للكيد له ، وأنحشى أن يكون من أسباب ذلك أنه ولي
العهد ، وأنه يسد الطريق على أبناء هشام . ولعله لو تخلى عن
هذه الولاية لارتدت عنه سهامهم ، ولعاش كما يعيش غيره ،
ولسكنت عنه ألسن السوء .

وبينما هم في الحديث إذ بدت لهم من النافذة ، عن بعد ،

جماعة من الفرسان ، تثب الكلاب من حولهم ومن خلفهم ،
وقد سار في المقدمة فارس معتدل القامة ، كأنه عامل الرمح ،
وهو يعبث بسوطه في الهواء . فقال السلمي : هذا هو الوليد ومعه
فتيانہ ، وقد قدموا من الصيد ، وسيكونون بيننا بعد قليل .

فتمكن الزهرى في مجلسه ، وتتم بكلمات ربما كانت تسبيحاً ،
وربما كانت استنكاراً . ومضت عينا ابن عنبسة بالشر ،
وتنحنيح يزيد بن الوليد وقال في حزن وأسى :

— وهكذا تدور حياة هذا الشاب بين مرح ولهو وغناء
وطرب ! يا لضيعة بنى أمية !

ويصل الوليد إلى القصر ، ومعه من ندمائه كاتبه عياض بن
مسلم ، وابن سهيل ، والمنذر بن أبي عمر ، وعبد الصمد بن
عبد الأعلى . فيسرع إليه غلامه رستم الفارسي ، وخادمه سبرة ،
فيخبرانه بكل ما دار بين القوم من أحاديث ، فيعبر وجهه
قليلاً ، ثم ينبسط عن ابتسامة مأكرة ، فيها عناد ، وفيها
تشف ، وفيها انتقام وعيث . ثم يقول : أبعثهم إلى هشام
لينصحوني أم يمهّدوا السبيل إلى خلعي من ولاية العهد وتولية
ابنة مسلمة ؟ والله لن أخلع ما وضعه الله في عنقي أو أموت دونه !
يقولون إني لاه عابث ، سأريهم يا سبرة كيف أعبث بهم ،
وكيف ألهو بأشياخهم ، وسأريهم أني لأبالي بما يذيعون عني من

كذب و بهتان . ادع عمر الوادى وأبا كامل ، وادع جميع
المغنين ، فسوف يعرفون اليوم من هو الوليد بن يزيد ؟ وانطلق
سبرة يطيع أمر مولاه ، وما هي إلا لحظات حتى سمع رنين العيدان ،
ونقر الدفوف ، وأقبل المغنون ومشى أمامهم الوليد نحو زواره .
فلما دخل عليهم كان أبو كامل يغنى :

عللانى واسقيانى من شراب أصفهائى
من شراب الشيخ كسرى أو شراب الهرمزان
إن بالكأس لمسكا أو بكفى من سقائى
إنما الكأس ربيع يتعاطى بالبنان
وكانت القيان تدق بالكفوف والدفوف ، ويمشين فى خفة
ومرح ، كأنهن الحمام ترف رفيفاً . تم اتجه الوليد إلى عمر
الوادى صائحاً : يا جامع لذتى ومحبي طربى ، غنى من خفيف
الرمل بالبنصر ، فانطلق يغنى :

اصدع نجى الهموم بالطرب
وانعم على الدهر بآبنة العنب
واستقبل العيش فى غضارته
لا تقف منه آثار معتقب
من قهوة زانها تقادُ مهسا
فهى عجوز تعلو على الحقب

أشهى إلى الشرب يوم جلوتها
من الفتاة الكريمة النسب
فقد تجلت ورق جواهرها

حتى تبدت في منظر عجب
فهي بغير المزاج من شرر
في فتية من بنى أمية أه
ل المجد والمآثرات والحسب
ما في الوري مثلهم ، ولا بهم
مثلى ، ولا منم لمثل أبي
وما كاد ينتهى من غنائه حتى هجم عليه الوليد ، وأخذ يقبله
ويخلع من عقود الجواهر التي يتحلى بها ويضعها في عنقه .

وهنا لم يطق الزهرى الصبر ، فهم بالوقوف ودعا صاحبيه
إلى الخروج ، ولكن يزيد بن الوليد اجتمذه من كنه وهو يقول :
إننا لا نستطيع أن نغادر القصر من غير أن نقضى حاجة هشام ،
فإنك تعرف ثورة غضبه على من يتهاون في تأدية ما يطلبه منه .
ولمح الوليد ما يدور بين القوم فصرف المغنين ، ثم أقبل على
الزهرى في أدب ونخشوع وكثير من الوقار ، كأن لم يكن شيء ،
وكأن ما ملا البهو من لحو وطرب منذ لحظة لم يكن منه شيء .
أقبل على الزهرى فحيّاه ورحّب به ، ثم نظر إلى يزيد بن الوليد
وإلى ابن عنبسة نظرة صلف ، أتبعها بتحية ، فيها تيه ، وفيها
اعتزاز ، ثم أخذ يسأل الزهرى عن مسائل في الحديث وغريب

اللغة والقرآن ، والقوم في دهش جارف ملك عليهم ألسنتهم ،
وأذهل عقولهم . فلما هدأت نفس الزهري قال :

— إننا جئنا إليك يا بني من قبل الخليفة لنسدى إليك
النصح ، وندعوك إلى ترك ما أنت فيه من لهو يقضى على المروعة ،
ويعبث بالشرف . وقد ضاق الخليفة ذرعاً بما يسمعه عنك ،
وما ينقل إليه من أمرك . ثم إنه الآن ، وقد تقدمت به السن ،
يخشى أن يترك الخلافة في يد من لا يصونها أو يستطيع النفع
دونها . وهؤلاء المسوّدون — كما يسمونهم — أو دعاة بني العباس ،
قد ظهروا بخراسان ، وأصبح لهم عديد وعدة ، وأشباع وأنصار .
فإذا لم يحجم الخلافة رأى نافذ ، وعزم باطش ، ضاع الملك
الذي أثبتتموه ، ولاقى بنو أمية من أعدائهم شر ما يلاقى الدليل
المقهور . فالخليفة يندرك ويدعوك إلى التوبة ، ونبذ ما أنت
فيه ، ويطلب إليك أن تسرح ندماءك وأصفياءك ، وأن
تبتدىء حياة جديدة كلها جد وصلاح ، وابتعاد عن الدنيا ،
واهتمام بشئون الدولة حتى تكون أهلاً لولاية العهد .

كان الوليد ينصت عابساً مفكراً يعبث بأصابعه في شعرات
لحيته ، وما كاد ينشئ الزهري حتى أرسل قهقهة طويلة اهتزت
لها جوانح صدره ، ثم نظر إلى القوم وقال :

— الأجل ذلك جشتم ؟ ومن أجل هذا أتعبتم دواً بكم حتى

بلغتم قصرى ؟ لقد سخر منكم هشام وغرر بكم . إن ما يجرى فى
قصرى من اللهو العفيف لا يزيد عما يجرى فى قصور فتیان بنى
أمية . ثم التفت إلى ابن عنبسة ويزيد وقال : وعما يجرى فى دار ابن
عنبسة وفى قصر يزيد ، وإن أبناء هشام أنفسهم يتمتعون بالحياة
طولا وعرضاً وعمقاً ، ولكن هشاماً يريد شيئاً آخر ، يريد أن
يسخركم من حيث لا تشعرون فى مأرب هو أقصى أمانيه
ومنتهى آماله ، يريد أن يهدم هذا السد الذى يحول بين ابنه
مسلمة والخلافة ، يريد أن يخلع عنى ولاية العهد بعد أن أقسم
عليها أمام أبى أغلظ الأيمان ، وأعطى أوثق العهود ، ليقدّمها
إلى « أبى شاكر » هدية غالية ثمينة تبقى فى أولاده وأحفاده أبد
الدهر . ولم ير للوصول إلى ذلك من سبيل إلا أن يثلب عرضى ،
ويكثر فى قالة السوء ، ويبعث حولى جواسيسه وعيونه ليجمعوا
من الفأرة جملاً ، ومن بيت النملة قصراً ، وليلثوا الدنيا بأخبار
زندقتى ، حتى لقد أصبحت حديث السّمار ، ومثلاً شروداً فى
اللهو وحب الطرب . وإنى أسخر منه ومن أعوانه ، وأزيد فى
نكايته بإصرارى على ما أحب ، وتمسكى بما يكره . ثم إنه أراد
أن يخطو خطوته الأخيرة فبعثك يا ابن شهاب ، وأنت من أنت
فى رأى العامة والخاصة علماً وديناً ونسكاً ، ليستشهد بك لدى
الناس إذا خلعتنى ، وليقول لهم لقد صبرت عليه كثيراً فلم يزدجر ،

ونصحت له كثيراً فلم يرعو ، وهذا الزهرى على ما أقول شهيد .
 لقد حرمني العطاء منذ عدت من الحج ، وضيق على وعلى
 ندمائي ، ولكنى لم أبال به ، ولم آبه له ، وإن لى من ميراث
 أبى ومن أموال أخوالى ما يزيد عن حاجتى ، وإن فى نفسى
 يقيناً لا يزعرعه إرهاب هشام ، ولا تنقص منه صولة هشام ،
 ذلك أنى سأكون خليفة على رغم أنوف بنى أمية جميعاً ، وأن
 هشاماً سيموت ويزول ملكه ، ويذهب معه نهمه ، وتدفن
 مطامعه ، وسأكون من بعده الخليفة الأموى الفتى . وسوف
 أثيب أصدقائى أجزل الثواب ، وأذيق أعدائى مرّ العذاب .
 فلقد أعددت فى سرداب القصر مائة قيد من حديد كتبت على
 كل قيد اسم صاحبه . ثم التفت إلى ثلاثهم وقال : وأكبر
 ظنى أن أسماءكم بين ما كتب من أسماء ، وسوف يقول الناس
 إن الوليد لم يكن غراً ماثقاً ، ولم يكن مغفلاً ماجناً ، لأنه عرف
 أعداءه فحقهم ، وعرف أحياءه فأجزل عطاءهم .

أنا ابن أبى العاصى وعثمان والدى

ومروان جدى ذو الفُعال وعامر

أنا ابن عظيم القريتين وعزها

ثقيف وفهر والعصاة الأكابر

نبي الهدى نحالي ، ومن يك نحاله

نبي الهدى يقهر به من يفاخر
ثم وقف ومد يده إلى الزهري وهو يقول : إذا لقيت هشاماً
فقل له عني :

كفرت يدا من منعم لو شكرتها
جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمن
رأيتك تبنى جامداً في قطيعتي

ولو كنت ذا حرم لهدمت ما تبنى
أراك على الباقيين تجني ضغينة

فيا ويحهم إن متّ من شر ما تجني !
كأنى بهم يوماً وأكثر قولهم

ألا ليت أنا ، حين « ياليت » لا تغني
ثم ترك البهوفسار خلفه غلاماه وترك القوم مشدوهين حائرين ،
فأخذ الزهري يجمع ثيابه ويتهيأ للخروج ، وهو يقول : صدق
رسول الله : إن لكل دين خلقاً ، وإن خلق الإسلام الحياء .

رشد و غي

كان الوليد من أصبح الناس وجهاً ، وأشدهم قوة ، وأرقهم طبعاً ، وأظرفهم حديثاً . وكان فارعاً متين البناء يكاد يتفجر منه ماء الشباب ، وكان أعظم ما يجتذب إليه النظر عيناه السوداوان الواسعتان اللتان يلتصق بهما وميض وهاج ، فيه القوة والعزيمة والشراسة ، ثم لا يكاد يظهر هذا الوميض حتى يختفي وتأخذ مكانه نظرات ذابلة ناعسة ذاهلة ، فيها شعر ، وفيها خيال ، وفيها ما يشبه الذهول . وكان يلبس حلة خضراء من الحرير الدبيقي فوقها جبة بيضاء طرزت حواشيها بالذهب وتغطي رأسه عمامة من الخز الأحمر حليت أطرافها بالدر الثمين ، ويتقلد عقوداً من نفيس الجواهر المتألثة الباهرة الألوان . وكان يغير هذه العقود في اليوم مراراً كما يغير حله وأثوابه .

قصد الوليد بعد أن ترك من جاءوا لنصحه إلى حجرة فسيحة كان بها جماعة من ندمائه وإخوانه ، وكان بينهم أشعب بن جبير مضحكه ومند ره ومسلية . وكان أشعب آية زمانه في سرعة البديهة ، وتوقد الذكاء ، وحسن الحيلة ، وإجادة النادرة ،

وإثارة الضحك من غريب ما يقول وعجيب ما يفعل .
وكان لا يحب أن يزاحمه أحد في فنونه وألا عيبه . فقد زعموا
أن رجلا بالمدينة حاول أن يسلك مسلكه ، وأخذ يحاكيه في
مذهبه ونوادره ، حتى استطابه الناس وأعجبوا به ، وعلم أشعب
بخبيره فركبه حتى عرف أنه يختلف إلى مجلس لبعض فتيان
قريش يحادثهم ويضحكهم ، فسار إليه ثم قال له : بلغني أنك
قد نحوت نحوي ، وشغلت عني من كان يالفني ، فإن كنت
مثلي فافعل كما أفعل . ثم غصن من وجهه وعرضه وشنجه حتى
صار عرضه أكثر من طوله ، وصار في هيئة لم يعرفه بها أحد .
ثم أرسل وجهه وقال : ثم افعل هكذا ، وطول وجهه حتى كاد
ذقنه يتجاوز صدره ، وصار كأنه وجه الناظر في سيف لامع .
ثم نزع ثيابه وتحادب فصار في ظهره حذبة كسنام البعير ،
وأصبح طوله مقدار شبر أو أكثر . ثم قام فتمدد حتى صار أطول
ما يكون من الرجال . فضحك القوم حتى أغمى عليهم ،
وبهت الرجل فما تكلم بنادرة ، ولا زاد على أن يقول : يا أبا العلاء
على الله عهد ألا أعاود ما تكره ، وإنما أنا تلميذك وخريجك .
وكان أشعب في ذلك الحين قد جاوز التسعين ولكنه بقي
مستكملاً قوته ، حافظاً لفنّه ودعابته . وكان دقيق الجسم
ناحله ، أزرق العينين أحولهما ، أصلع الرأس حتى كأن رأسه كرة

من الشمع اللّامع . وحينما ورد على الوليد حظى عنده فأمر خدومه أن يلبسوه سروالا من جلد قرد له ذنب طويل . وأن يشدوا في رجله أجراساً وفي عنقه جلاجل .

دخل الوليد على ندمائه باشاً مبتهجاً كأن وفد هشام لم يثر في نفسه همّاً ، ولم ينكدر له صفواً ، فشرع ابن سهيل يقول : — لقد أحسنت إجابتهم يا مولاي وكشفت خديعتهم ، ولكني أخشى ألا يقف هشام عند هذه الغاية ، وأخشى أن يكون ما فعله اليوم إنما هو تحفز لهجوم ، وطليعة لمكيدة جديدة . فقال عياض :

— إن هشاماً لا يستطيع أن يمس الوليد ، ولكنه سيصيب غضبه علىّ وعلىك يا أبا وهب . فقد بلغنى من مولاه يعقوب — وهو جاسوس لى عليه — أن حديثاً جرى منذ يومين بشأن الوليد وندمائه ، وأن جواسيسه نقلوا إليه بعض شعرك الذى تمدح به الأمير وتذكر ما يرجى منه إذا ولي الخلافة ، وترمى فيه هشاماً بأقبح الصفات ، فغضب حتى كاد يعود حوله عمى ، ثم صاح : والله لأقصن جناحيه ، ولأفرقن عنه قرناء السوء الذين يمالئونهم علىّ ! والرجل بطّاش منتقم ، يقتنص العصفور من بين براثن النسور ، ولا يترك أعداءه للمقادير . وهنا قال عبد الصمد بن عبد الأعلى :

— وكل حقه على أنى لم أخضع لأمره ، ولم أقنع الوليد بالتخلي عن ولاية العهد . فأسرع عياض وقال :

— إن لى ولك عنده ذنباً لا يحصيها العد ، ولكننا لن نبالى به ، ولن نأبه لوعيده ، وسنكون ألصق بالوليد من جلده ، وأقرب إليه من عقوده ، ولو لقينا فى سبيل ذلك الموت . والله غيب هو مظهره ، ولعلها غمرات ثم ينجلين ، وظلمة يتبعها سفور الصباح . إن الرجل مضطرب مصاب بمرض يسمى ولاية العهد ووجوب انتقالها إلى ابنه مسلمة . فصرخ الوليد :

— دون هذا وتسيل الدماء . إن ولاية العهد قد كتبت فى سجل القدر ، ولن يستطيع هشام أن يمحو مدادها ولو استعان بأمواج البحار . ثم قام فى اختلاج واضطراب إلى ندمائه فأخذ يقبلهم واحداً واحداً ، والدموع تنهمر من عينيه ، وهو يقول :

أنا أعلم أن المكروه سيصيبكم من أجلى . ويل لى ! ويل لكم منى . أليس مما يمزق القلب أسفاً أنى لا أقدر أن أدفع عن أصدقائى وخلصائى ؟ إننى إزاء بطش هذا الرجل أضعف من ذات خمار . ولقد عرف كيف ينتقم منى فيكم ، وعرف كيف يحرمنى بفقدكم طيب الحياة . إننى أعلم أن كلمة واحدة من فى تنقذكم جميعاً ، ذلك بأن أذهب إلى هشام وأقول له إنى تخليت راضياً عن ولاية العهد ، ولكنى لن أفعل شيئاً من

هذا ، لأنى أعلم أنى أحب إليكم من أنفسكم ، وأنكم تفقدونى بأرواحكم ، وأن أكبر آمالكم أن أصبح خليفة وأن أشفى نفسى بدماء أعدائى . ثم ضحك طويلاً حتى كادت تسقط عمامته ، وقال : موتوا مطمئنين أيها الأوفياء . ثم التفت إلى ابن سهيل وقال : ما أجملك مصلوباً يا أبا وهب ، وقد امتدت ذراعاك فى الهواء كأنك لا تزال تذكر عناق الحسان . لا تعجزع يا حبيبى ، وميت آمناً فسأقتل بك عشرين فتى من فتيان بنى أمية . أما أنت يا ابن مسلم فما تطيب له نفسك أن تعلم أن سيفاً منذ طبعت السيوف لم يقطع عنقاً أشرف ولا أكرم من عنقك . فلا تبتئس أيها الصديق ، وسر إلى الموت كريماً ، فسأقتل بك خمسين فتى من فتيان بنى أمية . وهنا صاح أشعب بصوت يشبه نقيق الضفادع قائلاً : أما أنا أيها الأمير فسوف أموت فرحاً مسروراً ، لأنك ستقتل بى مائة عجل من عجول بنى أمية ! فأغرق القوم فى الضحك ، وقام الوليد يعدو وراءه ، ففر منه وهو يقفز أحياناً ، ويمشى على رأسه أحياناً ، ولجلاجه صليل ورنين . ثم صاح به الوليد :

— ماذا كان جواب الرسالة التى بعثتك بها يا قرد السوء ؟

وليم لم تخبرنى بما تم فيها بالأمس ؟

— انتظرتك حتى تفرغ من مجالسك يا أبا العباس ،

وكنـت أظن أن ذلك لن يكون إلا فى العام المقبل .

— سأكون فى العام المقبل خائفة فلا أحتاج إلى الاستشفاع بك .

— ولكنك ستكون بطباطعك الوليد بن يزيد الذى نعرفه جميعاً فلا تستغنى عن شفاعتى . فضحك القوم ، وقال ابن سهيل : ما تلك الرسالة أيها الأمير ؟

فتأوّه الوليد وغشيت وجهه سحابة من الحزن وقال :
— رسالة إلى سعدة .

— ألا تزال تذكرها ؟

— دعنى بالله يا ابن سهيل ولا تثر لواعج نفسى ، فإننى كلما ذكرت عهدى طار بى الشوق إليها وهزّنى نحوها الحنين . إننى رجل منكود الحظ ، شقى الطالع ، لا أكاد أصل فى سلم السعادة إلى درجة أشرف منها على الحياة حتى يسقط بى السلم فى هوة لا ينادى وليدها ، ولا يرجى فقيدها . لقد كان حبنا سماوياً لم ينعم بمثله زوجان فوق الأرض الفانية ، ولقد سرّت بنا سنوات كأنها بسيمات الروض لأشعة الصباح عشنا فيها تظلمات دوحة الحب سعيدين هائنين .

— إلى أن رأيت أختها سلمى .

— إلى أن رأيت أختها سلمى يا ابن سهيل ، ويلاه . ليت

هذا اليوم لم يكن . ذلك كان يوم أن ذهبت لأعود أباهما سعيد
ابن خالد ، وإنه ليوم بالغ الأثر ، شديد الخطر ، تبدلت فيه
حياتي ، واضطربت من بعده أيامي ، لمحت فيه سلمى وقد
برزت بوجه لم تشرق الشمس على أجمل منه ، وقامت حولها
جوارىها ليسترنها عنى ففرعنهن طولا ، فاهتز لها قلبي ، وخفقت
جوانحي ، ورحت بها صبياً متبولاً لا يستقر لي قرار ، ولا
ينطويء أوار .

— لذلك طلقت سعدة لتفوز بأختها .

— نعم طلقتها في لحظة جنون ، وكنت أظن أن الوصول
إلى سلمى بعد ذلك من أهون الأمور ، وأنه ليس عليّ إلا أن
أخطبها من أبيها فيجيب شاكراً مسروراً .

— ولكن هشاماً وقف بينك وبينه ، وحال بين المرأة
اليانعة وجانيها .

— نعم يا أبا وهب فرجعت صفر اليدين ، أندب
محبوبتين ، وأعاني آلام غرامين ، فلا على سعدة حصلت ،
ولا بسلمى ظفرت .

— والآن تريد أن تعود إلى مودة سعدة بعد أن هجرتها
وهجرتك وبعد أن أصبحت ذات بعل ؟

— إن غرامى بها يكاد يصل إلى حد الجنون ، إن لي أملاً

فى أن تنفصم عقدة زواجها فأعود إليها كما كنت زوجاً وافر
الخط سعيلاً .

— عجيب كل أمرك أيها الأمير ، وأعجب ما فيه أنك
بعد أن عاودك الهيام بسعدة لا تزال تحب سلمى .

— لا أزال أحبها ؟ إننى أحبها كما يقول ابن أبى ربيعة :
« عدد الرمل والحصى والتراب » إن لى فى الحب يا ابن سهيل
مذهباً لا تعرفه .

ثم اتجه إلى أشعب وصاح : ماذا كان جواب الرسالة أيها
القرء الأحمق ؟ فتقدم منه أشعب وهو يتصنع الخوف وقال :

— ذهبت إليها بالأمس يا سيدى فلما أذن لى عليها ، رأيت
صورة رائعة الحسن ما وقعت على مثلها عيناي ، فملكتنى
الدهشة ، وتعشّر لى لسانى ، فلما اطمأنت نفسى ، واستقرّ لى
مجلسى ، وقفت أقول وأنا أرتعد رعباً : يا سيدتى هذه رسالة
مولاي الوليد إليك ، وهو يقول لك فيها :

أسعدة هل إليك لنا سبيل ؟ وهل حتى القيامة من تلاقى ؟
بلى ، ولعل دهرأ أن يواتى بموت من حليلك أو طلاق
فأصبح شامتاً وتقر عيني ويجمع شملنا بعد افتراق
وما كدت أتم البيت الثالث حتى صرخت فى وجهى ،
وأخذت تصيح بخدمها : خذوا عنى هذا الفاسق الفاجر ،

جرّوه من رجليه ثم اقتلوه في بستان القصر ولا تدنسوا بدمه بساطي . فلم أملك نفسي من الرعب والوهل ، وتعلقت بطرف ثوبها في ذلة وتوسل وأنا أقول : ارحميني يا مولاتي . ارحميني بحق جدك عثمان بن عفان . لقد والله كنت أعرف أنني مقدم على مثل هذا ، ولكن ماذا أصنع وأنا أشعب ، وقد أغراني ثمن هذه الرسالة المشئومة ؟ إن ثمنها يا مولاتي عشرة آلاف درهم ! عشرة آلاف درهم ! فابتسمت قليلا وقالت : والله لأقتلك أو تبلغه كما بلغتني : فهدأت نفسي وقالت : وماذا تهين لي من أجر على رسالتك ؟ قالت : بساطي الذي تحتي . قلت : قومي عنه إذا فإني لا أحب بيع النسيفة . فقامت عنه وطويته تحت إبطي ، ثم قلت : هاتي رسالتك جعلت فداك . قالت : قل له : أتبكي على لبني وأنت تركتها ؟ فقد ذهبت لبني ، فما أنت صانع ؟ ! وما كاد ينتهي حتى وثب عليه الوليد كأنه الحمل الصائل ، ولكن أشعب استطاع أن يفر منه قبل أن يلاشحه بسوطه فصرخ الوليد : إنها تقول : فما أنت صانع ؟ الذي أصنعه يا ابن أم الحلندج أن أدليك منكساً في بئر ، أو أن أقذف بك من قمة القصر ، أو أن أضرب رأسك بسيفي ضربة أطيح بها رأسك . هذا هو الذي أنا صانع . فوقف أشعب في ثبات وثقة وقال : — والله ما كنت لتفعل شيئاً من هذا .

— ولم يا ابن المجلودة ؟

— لأنك لم تكن لتعذب عينين نظرتا إلى سعدة . فارتد الوليد عنه وهو يتأوه ويقول : نجوت يا ابن الورهاء . اعزب عني أيها الأزرق المشثوم .

وأذن مؤذن المغرب فانتفض الوليد كن يرفع رأسه من بلحة غامرة ، وتبدلت حاله ، ولبسته صورة رائعة من الخشوع والتبتل ، ونظر إلى السماء في ذلة وخشية ، وأسرع غلامه سبرة فأحضر إبريقاً وطستاً فتوضأ ، وقام القوم فتوضئوا ، ثم صاح بصوت هز أرجاء القصر: الصلاة الصلاة. ونهض فأم من بالقصر ، فلما فرغ من الصلاة أخذ يجاذب ندماءه طرائف الأحاديث والأخبار ، حتى إذا مر طرف من الليل صاح : أين النوار ؟ أين سعاد الكوفية ؟ أين جامع لذي ومحي طربي ؟ أين عمر الوادي ؟ وكأنهم جميعاً كانوا يترقبون هذا الأمر ، فما مرت لحظات حتى أقبل الجوارى والمغنون . فطلب إلى عمر الوادي أن يغنيه بشعره في سلمى ، فعزفت العيدان ، وارتفع صوت الناي ، ودقت الدفوف ، وأخذ عمر يغنى هزجاً بالبنصر .

| | | | | | | |
|-----|-------|------|-------|--------|-------|-------|
| يا | سليمى | يا | سليمى | كنت | للقلب | عذابا |
| يا | سليمى | ابنة | عمى | برد | الليل | وطابا |
| أما | واش | وشى | بى | فاملئى | فاه | ترابا |

ريقتها في الصبح مسك باشر العذب الرضا
 فطار عقل الوليد من الطرب ، ونخلع بجبته وقذف بها في
 وجه عمر وهو يقول : نخذها لا بارك الله لك فيها ، ثم زدني بالله
 زدني ، فانطلق يغنى رملاً بالبنصر :
 يا من لقلب في الهوى متشعب ؟

بل من لقلب بالحبيب عميد ؟
 سلمى هواه ليس يعرف غيرها
 دون الطريف ودون كل تليد ؟
 إن القسرة والسعادة ألفا

بين الوليد وبين بنت سعيد
 فما أتم غناءه حتى قام الوليد فاخطف الدف من جاريته
 صدوف غاضباً وقال : أنت لا تحسنين الإيقاع يا جارية !
 دق عليه أنت يا ابن عائشة ، وغننا بالله يا أبا كامل ، فأسرع
 يغنى :

| | |
|----------------------|--------------------|
| ويح سلمى لو تراني | لعناها ما عنساني |
| متلفاً في اللهو مالى | عاشقاً حور القيان |
| إنما أحزن قلبي | قولى سلمى إذ أتاني |
| ولقد كنت زماناً | خالى الذرع لشانى |
| شاقى قلبي وعناني | حب سلمى وبراني |

ولكم لام نصيح في سليمى ونهاني
فكاد يخرج من ثيابه لشدة الطرب ، فلما هدأت نفسه ،
وثب مسرعاً إلى الجناح الذي تسكنه أمه ، وهو يصيح : ياسيرة
اطرد المغنين ، واصرف الجوارى ، فقد سئمت هذا العبث .
أخرجهم من القصر إن شئت فإنهم جنود إبليس في هذه
الأرض .

دخل الوليد على أمه حزيناً مطرقاً يكاد يطفئ الدمع من
عينيه ، وكانت أمه بنت محمد بن يوسف بن الحكم الثقفي أخى
الحجاج بن يوسف ، فى نحو السادسة والأربعين ، وهى على
تجاوزها ريعان الشباب ، لا تزال تزهى بلمحات جمال بارع ،
لم تذهب بنضارته السنون . وكانت مولعة بالوليد كثيرة التدليل
له ، والرفق به ، والإغضاء عن هفواته .

دخل عليها فرآها جالسة على أريكة نجدت بالحرير ،
وطرّزت ستائرهما بالقصب ، وقد لفت رأسها بخمار من الحرير
الأسود ، فبدا منه وجهها كما يبدو البدر فى حلك الظلام .
وكانت تقرأ القرآن ، وأبو رقية أمامها ممسك بالمصحف يستمع
لتلاوتها .

وكان أبو رقية هذا فى طليعة شبابه شديد الذكاء متوقد
القريحة ، تجرد لطلب علوم الدين والقرآن ، فأوغل فى الدرس ،



وواصل فيه ليله بنهاره ، فغلبت عليه المرة السوداء ، فاختلط عقله ، وأصابته لوثة ، وانتابه البله في أكثر أحواله . ولكنه كان يفيق أحياناً فيثوب إليه عقله . ويعاوده ذكاؤه ، ويصدر عنه من الدهاء والمكر ما يعز على أكثر العقلاء . وقد يرى في أثناء إفاقته أن من الخير له أن يتباله ، فلا يكاد يفرق من يراه بين بلاهته المطبوعة ، وبلاهته المصنوعة . ومما يؤثر من نوادره في إحدى نوبات جنونه ، أنه كان يحمل مرة في طرف ثوبه بيض دجاج ، فأحرده الصبيان وهموا برجمه بالحجارة ، فخاف على البيض منهم ، فوضعه على الأرض وجلس عليه حتى لا يراه منهم أحد .

واتفق عند دخول الوليد أن كانت أمه تقرأ قوله تعالى : «نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابي هو العذاب الأليم » . فانكب على يديها يقبلهما في حزن وخشوع ، وهو يجھش بالبكاء ويغمغم : نعم يا أماه ، إنه هو الغفور الرحيم ، ولكن عذابه هو العذاب الأليم ، فأين أكون من هذين ؟ وهل تتسع رحمته لمثلي ؟ إنه كريم يقبل التوب ، ويغفر الذنب ، ولكن أين غفرانه مني وأنا أشرد منه شراد البعير ؟ أسأليه عني يا أماه أن يرد عني كيد الشيطان ، فأني أخجل من دعائه والابتهاال إليه . خذيني إليك يا أماه ، وضميني إلى صدرك ، فلعل أعود كما كنت

طفلاً نقي الذيل طاهر النقيبة ، فقد استعبدتني نفسي ، وأثقلتني همومي . فأقبلت عليه أمه تمسح على رأسه في حنان ورفق ، وتملاً وجهه بقبالاتها ، ثم قالت :

— خفف عن نفسك يا ولدي ، فإن الدموع تغسل الذنوب ، والخوف من الله أول مراتب التوبة النصوح . ثم ابتسمت وأخذت تربت كتفه وتقول : ولكنك يا بني لا تكاد تعري أفراس الصبا حتى تسرجها وتركض بها غير مبال ولا هيّاب ، ولا تكاد تحطم كأساً من اللهو حتى يسبك لك الشيطان كأسات . إن قلبك يا بني قلب مؤمن ، إذ اتيقظ كشف لك وجه الحق ، فدعه دائماً متيقظاً .

— ليتني أستطيع يا أماه ! إن ابن إبابس تمنى على أبيه لعبة يلهو بها فلم يجد له اللعين سوى . إنني أفيق كما يفوق المحموم ثم أعود إلى الحمود . ويلتمع في نفسي نور من الحق كما يلتمع السراج في آخر الليل ثم يخبو . أرايت هذا المجنون أبا رقية . . ؟ فصاح أبو رقية في استنكار : لست مجنوناً ولكني أشعر بالجنون أحياناً حينما أراني مدفوعاً إلى حب أمثالك يا أبا العباس ، وإلى بذل ذات نفسي للدفع الشر عنهم .

— أتحنني يا أبا رقية ؟

— نعم وأركب كل صعب للوصول إلى ما يرضيك .

— أتقول حقاً أيها الأبله ؟

— لست بأبله لأننى لا أشرب إلا إذا ظمئت ، أما غيرى
فيشرب وهو ريّان .

— وكثيراً ما صفروا لك لتشرب .

— خير لى أن أشرب مع الحمير من أن أشرب مع
قرناء السوء .

— أما ذقت الخمر يا أبا رقية ؟

— ذقتها بعينى عند ما رأيت عربة الخمورين .

— تباً لك من معتوه ، والله ما رأيت لك مثلاً .

— إنك ترى كثيراً من أمثالى فى مجالس الشراب .

فابتسمت أم الوليد وأشارت إلى ابنها أن يكف ، ثم
سألت : ما شأن هؤلاء القوم الذين جاءوا اليوم ؟ لقد أخبرتنى
صدوف بكل شيء .

— صدوف ؟ إننى لا أحب هذه الجارية يا أمى على جمالها
وكمال أدبها . لا أدرى لماذا ، ولكنها نفرة أشعر بها كلما مددت
إليها عيناً .

— إن صدوف من خير جواريك خالماً وخلقاً . ولقد شكت
لى منذ أيام صدودك عنها ، وانصرافك إلى غيرها .

— إن الحب والبغض شينان نحبهما ولا نعرف أسبابهما .

— هذا حق ، ولكن الكريم يجامل إذا لم يجب .

— بم أخبرتك صدوف ؟

— أخبرتنى بكل ما قاله لك رسل هشام ، وبكل ما قلته

لهم . إنها خدعة الصبي عن اللبن يا بني ، فلا تركز إليهم .

إن هشاماً يريد أن يتخلص منك ، فأياك أن تمكنه من مأربه ،

وإن ولاية العهد لأمانة لله في يديك فت دونها كريماً ، ولا تفرج

عنها أصابعك . لقد مات أبوك بين سحرى ونحرى وهو ينظر

إليك محزوناً مكموذاً ويقول : الله بينى وبين من جعل هشاماً

بينى وبين ولدى ! فقد كانت ولاية العهد لك بعد أبيك يا بني

ولكن عمك مسلمة أدخل على أبيك الشبهة ، وقد كنت صغيراً ،

فحملة على أن يعهد بها إلى هشام على أن تكون لك من بعده ،

والآن وقد استمرأ هشام مرعاها ، واستحلى أفاويقها ، بهم

بأن يخلعك ليخص بها ابنة من بعده . إن ذلك أبعد إليه من

السماكين ، وأناى من الفرقدين . إن بقصر هشام أحابيل

تنصب لك ، ومكايد تدبّر لهلاكك ، فكن منها على حذر ،

وامش يا بني كمن يمشى في مسبعة لا يرد الطرف عن ناحية

حتى يصوبه إلى أخرى ، وخير سلاح ترد به كيد أعدائك أن

تتخلى عما أنت فيه من هو ، فإنهم يجعلون التشهير بك ذريعة

إلى نيل ما يؤملون .

— ليتنى أستطيع أن أتخلى .

— كن قوى العزم يا بنى ، وغالب نفسك بالصبر والجلد .

ألا تزال تحن إلى سلمى ؟

— حنين النيب إلى إفاها . لقد قابلت أباها منذ أيام

أمام باب الفرديس فسألته عن سلمى ، وتذلت له ، وألحفت

في المسألة ، فما كان منه إلا أن نأى بجانبه فى أنفة وكبرياء ،

فأمسكت بذراعيه وقد اشتد بي الغيظ وقلت : سحفاً لك من

رجل منخوب الفؤاد . الآن تردنى عنها ، وكأنى بك وقد وليتُ

الخلافة تتملقنى وتخطبنى لابنتك فلا أجيبك . فما كان منه إلا

أن نثر ذراعيه من يدى وقال : إن امرأ يجعل كريمته عند مثلك

لحقيق بأكثر مما قلت . فلم أملك إلا أن أجبه بما يكره من

شتائم ، وتركتته مغضباً .

— لقد انقلبت الأوضاع يا بنى فى هذه الدولة ، واضطربت

الموازين . ولقد عشت حتى أرى سعيد بن خالد يأنف من

مصاهرة الوليد بن يزيد . كنت أزور اليوم أم عثمان زوج هشام ،

فسمعت منها أن يزيد بن عنبسة يلح فى خطبة أختها سلمى ،

وأن هشاماً يميل إلى تزويجه بها . فوثب الوليد كأنما انقضت عليه

صاعقة ثم صاح : ويل للفاجر . يزيد بن عنبسة يخطب سلمى !

إنه أقل من أن يشرف بنيل إحدى وصائفها . ألهذا جاء إلى

اليوم في صورة الأمين الناصح ، وجعل من نفسه صنيعه
لهشام ليشتري بي ، ويملاً الآفاق بمذمتي ؟

— أخشى أن يكون تزويجه بسلمي جزءاً من المكيدة التي
تدبر لك .

— لو نال منها شعرة لرويت منه سيفي .

وبينما هما في الحديث إذ سمعت ضجعة في القصر ، ودخل
سيرة مذعوراً وهو يلهث ويقول : قدم يا مولاي خالد بن القعقاع
رئيس شرطة هشام ، ومعه كثير من أعوانه ، فوثبوا على القصر
وقبضوا على ابن سهيل وعياض وعبد الصمد ، وكبلوهم بالأغلال ،
ثم ساقوهم إلى سجن الخلافة . وكان أبو رقية ينصت دهشاً ،
وقد اتسعت حدقتاه حتى كادت تملآن وجهه ، وتتم بكلمات
زادها الجئون إبهاماً . وسقط الوليد لول الخبر ، ثم أخذ يئن
أنين المجروح ويقول : أصدقائي ! أحبائي ! ندمائي ! اللهم
أجرني منه ! اللهم أجرني منه !

أنا النذير لمسدى نعمة أبداً

إلى المقاريف ما لم يخبر الدخلا

إن أنبت أكرمهم ألفيتهم بيطرا

وإن أهنتهم ألفيتهم ذللاً

أتشمخون ومننا رأس نعمتكم ؟
 ستعلمون إذا أبصرتم الدولا
 انظر فإن أنت لم تقدر على مثل
 لهم سوى الكلب ، فاضربه لهم مثلاً
 ثم وثب فجأة ، وأمر سبرة أن يدعو المغنين ، وانطلق من
 باب الحجرة كما ينطلق السهم ، وهو يصيح : إلى مطلع الفجر !
 إلى مطلع الفجر !

سجن وإطلاق

كان هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي في نحو الخمسين
 من عمره ، وسيم الوجه ، أبيض البشرة بادنأ ، عريض الجبهة ،
 حسن اللحية ، يخفض بالسواد ، في عينيه حول . وكان حازماً
 ذا رأى ودهاء ، من رآه رأى رجلاً محشوراً عقلاً . وكان بخيلاً
 جماًعاً للأموال . وكان يجلس في هذا الصباح بدار الخلافة ،
 وقد وقف أمامه كاتبه سالم أبو العلاء ، وجلس إلى يمينه ابنه
 مسلمة وسعيد ، وإلى يساره جمع من رجال بني أمية ، منهم
 يزيد بن الوليد وإبراهيم المخزومي ويزيد بن عنبسة . وأخذ سالم
 يقرأ عليه ما حملة البريد من أخبار الأطراف ، وما بعث به الولاة

والقواد من رسائل ، وما ورد من العيون والحواسيس الذين كان
يبتهم الأمويون في أقطار الدولة .

وقرأ سالم أول ما قرأ رسالة من حسان النبطي ، يذكر فيها :
أن خالد بن عبد الله القسري ، عسف بأهل العراق ، وسلب
أموالهم بالقهر ، حتى لقد بلغت غلته عشرين ألف ألف درهم .
فزجر هشام وصاح : بمثل هؤلاء الولاة تزول الدول : وتتهار
الممالك . والله لأردننه إلى بغلته وطيلسانه الفيروزي ؟ اكتب إلى
يوسف بن عمر عامل اليمن بولاية العراق ، ومره أن يسجن ابن
النصرانية وعماله ، وأن يحتجز كل ما لهم من صامت وناطق .
لن يشرب ماء الفرات بعد اليوم ، وأنا ابن عبد الملك . إن الدولة
بولاياتها ، فإذا فسدوا فسد فيها كل شيء . هل من حدث آخر
يا أبا العلاء ؟

— وهذا يا أمير المؤمنين كتاب من خراسان بعث به عذافر
ابن يزيد يقول فيه : إن خراسان أصبحت عشًا لثنتين ، ووكراً
لشيعة بني العباس ، ينشرون فيها دعوتهم ، ويبعثون منها
رسلهم ، ويعدون فيها ما استطاعوا من قوة ، ويتلقون بالطاعة
ما يأمر به محمد بن علي بن العباس المقيم بالحميمة . وقد كتب
عذافر يقول : إن سليمان بن كثير وبكير بن ماهان ، يعملان
جاهدين في خفية وحذر ، لدعوة الناس إلى بني العباس ،

وصرفهم عن بنى أمية . ويقول : إن شاباً نشأ بأصفهان يكنى
 بأبي مسلم ، سيكون له شأن وخطر ، وإنه دولة في شخص ،
 وجيش في رجل ، وإنه ألد الخصام ، واسع الحيلة ، وإذا لم
 يقض عليه في أول نشأته ، عظم أمره ، وأثارها شعواء لا تبقى
 ولا تذر .

— إن خراسان مكن الداء في هذه الدولة ، وهي حصن
 أعدائنا الناقمين علينا . وهذا بكير بن ماهان يعمل منذ أن وليت
 الخلافة على الانتفاض عليها ، وإيغار الصدور على ولايتها .
 أليس في مملكتي رجل كريم العم والخال ، عربي الأرومة يوجر
 رحمه في أحشاء هذا الكلب العقور ؟ . ويل للخلافة من نصرائها .
 إنها تتلطف إلى حجاج ثان يشبت ما اهتز من أركانها . ثم
 إنى حرت في أمر محمد بن علي هذا ، إنك حينما قلبته لا تجد
 إلا زهداً وصلاًحاً وانصرافاً إلى الله وتبتلاً . إن اليد لترتعد إذا
 امتدت إليه بسوء ، وإن السيف ليتحطم في غمدة قبل أن يسلم
 في وجهه . والكنى أخشى أن يكون لابساً غير ثوبه ، وأن يكون
 سائراً وراء هذا الزهد خبياً وخديعة وفتكاً . وكالما ذكرت خبر
 أبي معه تملكني الخوف ، واعتصمت بالحذر . ذلك أن محمداً
 هذا ورد مع أبيه على أبي ، وكان بالمجلس قائف يلمح
 ما غاب عن الناس من أحكام القدر ، فلما انصرف التفت أبي

إلى القائف وسأله : أتعرف هذا ؟ قال : لا ، ولكنى أعرف من أمره واحدة . قال : وما هى ؟ قال : إن كان الفتى الذى معه ابنه فإنه يخرج من عقبه فراعنة يملكون الأرض ، ولا يناوئهم مناوى إلا قتلوه . فالتفت إليه يزيد بن الوليد وقال :

— هون عليك يا أمير المؤمنين ، فذلك حديث خرافة ، والله لا يطلع على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول . وأنصار العباسيين بخراسان حفنة متخاذلة يكفى أن يسوقها أحد عبيدك بالسوط إلى طاعتك .

— لا تستهينوا بصغار الأمور يا بنى أمية ، فإنها إحدى علائم زوال الدول .

— إن الدولة بخير يا أمير المؤمنين ، وقد قمت بالأمر فيها ثمانى عشرة سنة فثبت دعائمها ، وشددت أركانها .

— أتستكثر على ثمانى عشرة سنة فى الخلافة ؟ ويل لكم من بعدى ! والله ما تشبث بأهدابها إلا لأصون ملكاً ضيعه أهله ، وعبت به فتيانه ، ولقد أعلم أن كثيراً منكم يعيبنى بأنى حفى بالخلافة ، أكاد أعض عليها بالنواجذ . نعم إننى عايتها حريص ، وبها ضنين ، ولكنى أرى بعين بصيرتى مجداً يترنج ، وعرشاً تكاد تسقط قوائمه ، فأود لو امتدت حياتى ، وتنفس لى العمر حتى أعيد إلى الخلافة مجدها القديم . عجيب شأن الإنسان ،

لا يكاد يكتمل حتى يذبل ويدركه الموت ، وإن في الحياة ومطالبها وغاياتها ما يضيق به عمره القصير الأمد . أليس من أعجب العجب أن تعيش السلحفاة ، وهي من أحقر المخلوقات ، مائتي عام ، وأن تضمن الحياة على الإنسان المسكين بأكثر من ستين أو سبعين عاماً ؟ ولو أنه عاش عمر السلحفاة لصنع العجائب ، وأتى بالمعجزات . وماذا نعمل بالحياة إذا كنا نموت كلما أوشكنا أن نفهم حقيقتها ؟ ثم زفر زفرة طويلة ، واتجه إلى كاتبه سائلاً :

— أعندك شيء آخر ؟

نعم يا أمير المؤمنين قبض الشرطة بالأمس على رجل بالقرب من الباب الشرقي كان يداره قيان وخمر وطرب ، وقد أحضرناه ومعه البربط الذي كان يعزف به .

ودخل الرجل فوثب هشام من مجلسه واختطف البربط من يده ، وهو يصيح مهلداً : والله لأكسرن هذا الطنبور على رأسك أيها الفاجر ؟ فبكى الرجل ، وأغرق في البكاء ، فسأله هشام عن سبب بكائه . فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أبكى من خوف الضرب ، وإنما الذي أبكاني أنك تهين البربط وتسميه طنبوراً .

ولم ينفع الرجل بكأزه ولا توسله . فغضب وكسر بربطه

أو طنبورته على رأسه . وبعد انصرافه اتجه هشام إلى كاتبه يسأله عمن قبض عليهم بالأمس من ندماء الوليد ، وعما فعل بهم :

— قدفنا بهم في سجن الظلام مكبلين يا أمير المؤمنين .
 — إن هؤلاء شياطين الشر وأُس البلاء ، ولولا هم ما ركب الوليد رأسه ، ولا أطاع هوى نفسه . ولقد بعثت الزهري إليه بالأمس لينصح له فلم يلق منه إلا نكراً ، وإن من الحيانة لعهد الله ورسوله أن تترك الخلافة في يد هذا الفتى . يقولون إنني أريد أن أصرفها إلى ولدي مسلمة ، وأقسم إنني لو رأيت في ابن أخي خيراً ما جال هذا الأمر لي بخاطر . إنني أريد أن أرقد في قبري هائناً مستريحاً ، وأن أترك خلق الله في رعاية من يخاف الله . ولو حال ابن أخي بيني وبين ما أحب لهذه الأمة ، لرويت منه سيفي غير مستحقب إثمًا . وبينما هو منساق في حديثه ، إذ دخل الوليد وهو يمشي في بخثرة وعجب ، شامخ الأنف ، أصيد العنق ، فحيا أمير المؤمنين ثم جلس بجانبه حتى التصقت ركبته بركبته ، وكاد يزحمه في مجلسه . ونظر إليه هشام نظرة المغيظ المحنق ، ثم أسرع فبسط له وجهه كأنما طافت برأسه فكرة خاطفة صرفته عن نيته . وشرع الوليد يقول :

— لقد بعث أمير المؤمنين إلى نفرًا من جماعته بالأمس ليثلبوا عرضي ، ويخطوا ما رفع الله من كرامتي ، في أثواب ناصحين مشفقين ، وما كنت لعمر الله لأصبر على هذا الضيم ، لولا أنهم رسل أمير المؤمنين . إن أبناء عبد شمس وهم سادة الجاهلية وخلفاء الإسلام ، أقوى شكيمة ، وأحمى أنوفاً من أن يبطأطئوا رءوسهم لناصح متطفل . ثم ما هذا الذي فعلته يا أمير المؤمنين مما أقض مضجعتك ، وجعلك تترك شئون الخلافة لتشرغ لي ولأخذاني ؟ أأحدثت في الدين حدثاً ؟ أم هدمت من الخلافة ركناً ؟ أم جرّدت للفتنة جيشاً ؟ إنني أعيش في قصرى بعيداً عنك وعن حاشيتك وبطانتك ، ولكني لا أسلم من رقبة جواسيسك وتطلع عيونك ، حتى أصبحت هدفاً لكل رام . ثم لم يكفك هذا فعملت كادحاً على الانتقام مني ، فقطعت عني عطاءك لأذل لك وأستكين ، وأستجدي جدواك . وأقسم بمن خلق للحق ميزاناً ، وأعد للطاغين نيراناً ، إنني ما سررت بعطائك ، ولا حزنت لانقطاعه . فقد سبب الله لي من العهد ، وكتب لي من العمر ، وقسم لي من الرزق ، ما لا يقدر أحد دون الله على قطع شيء منه دون مدته ، ولا صرف شيء منه عن موقعه . ولعل من الخير لك يا أمير المؤمنين أن ترعى في

أواصر القربى ، وأن تذكر أبى الذى آثرك بها على ولده .
 فإن تلك قد ملأت القرب منى فسوف ترى مجانبتي وبعدي
 وسوف تلوم نفسك إن بقينا وتبلى الناس والأحوال بعدي
 إني جئت اليوم يا أمير المؤمنين لا لأطلب شيئاً لنفسى ،
 وإنما جئت لأسألك فى فكاك أصحابي الذين ألقيت بهم فى
 السجن ، وليس لهم من جرم ، إلا أنهم بي حفيظون ، ولعهدي
 مخلصون ، وإذا كان لا بد لغضب أمير المؤمنين من متنفس
 فليصبه علىّ وحدي ، فأنا به أوسع صدراً ، وأكثر احتمالاً .
 فأربد وجه هشام ، وانتفخت خياشيمه من الغضب ،
 وصاح فى وجهه :

— إني لن أترك الخلافة بين زق وعود ، ولن أتركها لندمائك
 يبيعونها للأعداء . أما ما ذكرت من قطعي ما كنت أجريه
 فإني أستغفر الله من سبق إجرائه عليك ، وأرجو أن يعفو الله
 عني بعد أن تداركت الأمر ، وأسعرت بقطع مال كان ينفق
 فى غير وجهه . وأما ندمائك فهم عندى جذور الشر ومعاول
 الفساد ، وهل زاد ابن سهيل لله أبوك عن أن يكون مغنياً زفاناً ،
 قد بلغ فى السفه غايته ؟ وهو مع ذلك ليس بشئ ممن تستصحبهم
 فى الأمور التى أكرم نفسك عن ذكرها . وهل عياض
 ابن مسلم إلا وسيط سوء بيني وبينك ، ومزور أخبار يستثيرك

بها على أهلك وقومك ؟ وهل عبد الصمد إلا رجل احتال
للوصول إليك ليكون لك معلماً ومؤدباً ، ثم انقلب فاجراً معربداً ،
وشيطاناً مغوياً ؟ إن سجن الظلام منذ أن بناه الروم في عهودهم
السحيقة لم تضم جدرانها ، ولم يظل سقفه ، أكثر إجراماً ،
ولا أخبث أنفساً ، ولا أجراً على الشر من ندمائك الملاعين .
لن يفك لهم إसार ، ولن يروا نور الحياة ، ما دام في نفس
يتردد . وأقسم لولا صلة القربى التي ذكرتها ، ولولا أن يشمت
الأعداء ببني مروان ، لألحقتك بهم . يا حرسى ، سر أمامنا
إلى السجن لنرى الوليد أحباءه فلعلمه يرى فيهم عظة ومعتبراً .
— لن أذهب معك يا أمير المؤمنين ، فإني أخشى أن
ينقض علينا غضب من الله ونحن في السجن .

— إن غضب الله لا ينقض إلا على الغاوين .

— إن كثيراً من الناس لا يعرفون أنفسهم .

— ولو عرفوها ما هزوا أعواد الخلافة باستهتارهم ، ولكني
الله المؤمنين شرهم .

— وأنى شر في مجالسة صديق وسماع لحن من الثقيل الأول ؟

— زوال الإسلام يا فتى ، وذهاب ريح المسلمين . هلم
إلى السجن لتمتع النظر بأصدقائك المخلصين .

فسار الوليد خلفه في تناقل واستكراه كأنما يقاد بالسلاسل ،



ووصل الخليفة والحاشية إلى السجن بعد قليل .

وهو سجن روماني قديم نحت في باطن الأرض ، ينزل إليه النازل بدرجات تبلغ الست والثلاثين ، وهو متسع الرقعة ، لا يزيد ارتفاعه عن قامة الرجل ، وقد قسم بالبناء حجرات صغيرة يقيم بها المسجونون ، وبه بئر عظيمة ، بعيدة الغور تسمى « بئر الموت » تلقى بها جثث من أنقذهم الموت من ويلات هذه الجحيم . وقد تراكت به الأقدار ، حتى أصبحت أرضاً فوق أرضه ، واشتد به الظلام حين حرم ضوء الشمس ، وركدت به روائح العفن والقذر حين حرم نسيمات الرياح . ولم يكن يفرق بينه وبين القبور إلا أن سكانه أحياء يشعرون فيتألمون ، وسكانها أموات لا يشعرون . ظلمة لا تسمع فيها إلا شكاة الشاكين ، ولا ترى فيها إلا أشباحاً هزيلة تروح وتجيء في ضوء خافت من المشاعل تخفق في اضطراب وضعف ، كما يخفق قلب الطائر الجريح أقصدته السهام ، وسجانون شداد غلاظ كأنهم زبانية السعير ، وأنات وزفرات تتلهف إلى قسوة الموت بعد أن يئست من رفق الحياة .

دخل هشام السجن وقد وضع يده على أنفه كراهية أن تصل إليه ريحه ، ومشى أمامه كبير السجن حتى وصل إلى حجرة ابن سهيل فرآه ملقاً على الأرض في مسح خلق ، والسوط

ينصب عليه من سجان عنيف صخرى القلب مفتول العضل ، وهو يئن أنين المحتضر ، ويستغيث فلا يجد مغيثاً . فأسرع الوليد وأمسك بيد السجان ثم وكزه بمرفقه في غضب وذكور ، حتى ابتعد عنه ، واتجه إلى هشام فقال : يا أمير المؤمنين اجعلني مكانه ، أو مر هذا الجبار الأحمق أن يكف عنه . إن الموت يا أمير المؤمنين أروح له من هذا العذاب . فلوى عنه هشام وجهه ، وأشار إلى السجان أن يمضي في عمله ، وجذب الوليد من كفه ، وسار وتبعته الحاشية فشهدوا من عذاب عياض وعبد الصمد ما تقشعر له الجلود . وكان الوليد حزيناً مطرقاً يذرف الدمع مدراراً ، وترسل أنفاسه حسرات إثر حسرات حتى إذا بلغوا إحدى حجرات السجن رأوا شيخاً في الثمانين ، وقد طال شعره ، وامتدت أظفاره ، ولم يبق منه السجن إلا عينين ذاهلتين ، ونفساً قصيراً متلاحقاً ، وجسماً كادت تبرز منه العظام . فسأل هشام كبير السجن عنه فقال :

— هذا يا أمير المؤمنين « مجاهد بن حبيب » كان من أصحاب « سعيد بن جبير » الذي خلع « الحجاج بن يوسف » وخرج عليه ، فلما تمكن الحجاج من سعيد وقبض على أصحابه كان هذا منهم ، فالتقى في هذا السجن ونسى ذكره ، فبقى هنا إلى اليوم . — هذا كان في سنة أربع وتسعين !

- نعم يا أمير المؤمنين .
- ونحن الآن في سنة ثلاث وعشرين ومائة ، أبقى الرجل منسياً في هذا السجن تسعاً وعشرين سنة ؟ .
- نعم يا أمير المؤمنين .
- وقرب الخليفة من الشيخ وصاح في أذنه : قم أيها الشيخ .
- فأجاب في صوت خافت :
- وهل أبقى في السجن والهرم ساقين أقف عليهما ؟
- خبرنا بحديثك .
- نسيته .
- من أنت ؟
- كنت رجلاً فيما مضى ، ولكنني أصبحت اليوم جثة بها نفس يطيل في عذابها .
- أتحب أن نطلق سراحك ؟
- ماتت في الرغبة والرغبة منذ زمن بعيد ، فأصبحت لا أريد ولا أخشى .
- أنا هشام بن عبد الملك الخليفة .
- « وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ »
- صدق الله العظيم .

فاتجه هشام إلى كبير السجن وقال : أطلقوا الرجل . ثم التفت إلى كاتبه وأمره أن يمنحه ما يكفيه في أيامه الباقية . وما كاد يخرج من السجن حتى رأى خادمه يعقوب يقبل إليه مسرعاً ، وقد تملكه الاضطراب والفرع ، وهو يصيح :

— مولاي مسلمة يا أمير المؤمنين ! !

— ما شأنه ؟

— اختطفه اللصوص يا أمير المؤمنين ! فبهت هشام

وصرخ :

— اللصوص ؟ أى لصوص ويملك ؟

— نعم يا أمير المؤمنين اختطفه اللصوص .

— كيف ، ثكلتك أمك ؟

— لقد خرج في هذا الصباح كمادته على بردونة الطُّخاري ،

وصحبته إلى الغوطة ، حتى إذا عزمنا على الرجوع بدا لنا من بعد

رجل يضرب امرأة بسوط ، لا تأخذه بها رحمة ، وهي تصيح

وتستغيث . فأشفق سيدي على المرأة ، وجرى نحوها لينقذها

وجريت معه ، ثم نزل عن بردونه ، وتقدم نحو الرجل شاهراً

سيفه ، وما كاد يفعل حتى خرج علينا كمين من الخلف

فانقض علينا رجاله ، وقبضوا على أيدينا فلم نستطع دفعاً ،

ثم شدوا وثاقنا فلم نستطع حراكاً ، ثم جاءوا فربطوا على فمي

وفم سيدى ، وحملوه على جواد لهم ، وانطلقوا به فى سرعة الريح العاصفة ، وبقيت مكتوفاً مكموماً حتى عثر بى أحد الأعراب فحل وثاقى فأسرعت إليك يا أمير المؤمنين لتجد إلى إنقاذه سبيلاً .

— ويل لهم ! يختطفون ابنى فى حاضرة ملكى وبين سمع أعوانى وبصرهم ! أى طريق سلكوا لا أم لك ؟
— لا أدرى يا أمير المؤمنين ، فقد أثارت خيولهم غباراً حجب عنى طريقهم .
— صفهم لى .

— كانوا يلبسون ثياب الأعراب ولكنهم لم يكونوا من الأعراب ، وقد دس أحدهم هذه الورقة فى يدى وهو يعقد وثاقى .

— هاتما ويلك ! فناوله يعقوب الورقة ، فأسرع إلى قراءتها وكان فيها :

إن لم تطلق عبد الصمد بن عبد الأعلى وابن سهيل وابن مسلم الليلة ذبحنا ابنك كما تذبح الشاة ، وقدفنا به فى فناء قصرك . إننا جادون غير هازلين ، وبيننا وبينك غروب الشمس فإن أطلقتم نام ابنك الليلة على فراشه ، وإلا فقد أنذرناك .
صعق هشام بعد أن قرأ الورقة ، وأخذت يدها ترتعشان ،

ورمى الوليد بنظرة كادت تسحقه ، وصاح بكبير السجن . أطلق
الكفرة الفجرة أصحاب الوليد ، وسوف يكون لى ولهم شأن ،
فإن للعذاب ألواناً غير السجن ، وسيعلم الأندال ما ينتظرهم
بعد حين .

هجر ولقاء

ترك الوليد هشاماً وهو يعجب لتصاريف القدر ، ويفكر
فى أمر الدين جرءوا على ابن الخليفة فاختطفوه فى النهار المبصر ،
كما تختطف السلع أو كما تظر الجيوب . ثم طاف بخاطره أن
هؤلاء القوم إنما كانوا يعملون لأجله ، ويحتطبون فى حبله ،
ويناصرونه على أعدائه ، وأنهم ما أنفذوا ندماءه من برائن
هشام إلا لحبهم إياه وبغضهم الخليفة . من يكون هؤلاء يا ترى؟
ومن الذى دفعهم إلى هذه الفعلة الجريئة ؟ ومن هو ذاك
الذى أمدّهم بالمال ، ورسم لهم تلك الخطة المحكمة ، وذلك
التدبير الحاذق؟ أسئلة لم يستطع الإجابة عنها بعد أن فكر طويلاً ،
وأكدّ ذهنه طويلاً ، فسار إلى قصره حتى بلغه فكان أول من
قابله أبو رقية المعتوه بوجهه الأبله ، وفمه المفتوح الذى لا ينقطع
منه سيلان الريال ، فقال الوليد :

— كيف حال الدنيا اليوم يا أبا رقية .

— الدنيا بخير لأنها تجري على نمط مطرد ، وإنما الناس هم الذين يتغيرون ، ولو عاش الناس عيشة البهائم لرأوا أن للدنيا صورة واحدة جميلة تتكرر على مر الزمان . وإذا قلنا لهم : عيشوا عيشة البهائم قالوا : إننا مجانين . إن الإنسان هو الذى يشقى نفسه فى هذه الدنيا بمطامعه وبعد مطالبه وضغنه على كل من يزاحمه فى الحياة ، أو يسبقه إلى لقياتها . وكلما نال منها نصيباً راد طمعه فلون الدنيا بالألوان نفسه ، فهو يرى فيها خوفاً وحقدًا وخداعاً وطمعاً واغتصاباً ، ولو حقق لعالم أن هذه الألوان البشعة إنما هى مرآى نفسه وصورها .

— مرحى أبا رقية . لقد أصبحت حكيماً بصيراً بالحياة

بعد أن عمى عنها العقلاء .

فضحك أبو رقية ضحكة أشبه بصراخ الأطفال وقال :

— وأين العقلاء أيها الأمير ؟ إنى أخشى أن تعدنى منهم ،

أليس عجيباً أن العقل الذى يعرف الأشياء يعجز عن أن يعرف

نفسه . وأن الناس يحصرون المجانين فيمن يرحمهم الصبيان

بالأحجار ، ولو علموا لرأوا أن الظالم والقاتل والمدمن والمبذر

والشحيح والمزهو بنفسه وكثيراً من أنواع الناس ، لا يعدّون فى

صفوف العقلاء .

— هل تكره الظلم يا أبا رقية ؟
 — أكرهه وأدفع شره بنفسى وبغبرى . ثم رفع عينيه
 الذاهلتين إلى الوليد وقال :

— هل زرت الخليفة اليوم ؟
 — نعم ، هل ذكرته حينما ذكرت الظلم والشر ؟
 — لا . ولكن نبئى أوصلت إليه رسالة من أحد ؟
 فدهش الوليد وقبض بشدة على ذراعى أبى رقية الرخوتين
 وقال :

— من أنبأك بهذا أيها الأحمق ؟ فابتسم أبو رقية ابتسامة
 الاطمئنان واليقين ، وقال :

— الحمد لله لقد أفلح التدبير . وماذا فعل هشام ؟
 — أطلق سراح المسجونين . ومن أين لك علم كل هذا ؟
 — كان ذلك يسيراً على ، فإن الخليفة حينما أرسل أعوانه
 إلى القصر فقبضوا على أصدقائك وقذفوا بهم فى السجن ،
 علمت أن كل ذلك للنكاية بك والإساءة إليك ، فذهبت باكياً
 إلى أمك فنفضت إليها الخبر ، فقالت : وماذا أصنع فى
 الخليفة ؟ فقلت : تعطينى مائتى دينار . فابتسمت فى حزن
 وأسى ، وقالت : ترشو بهما الخليفة ؟ فقلت : لا ، بل أعطيتهما
 « خارجة القيسى » شيخ لصوص الشام ، فقالت : وما شأنك

باللصوص ؟ قلت : إذا قسا الحاكم تحكم اللصوص . فتهدت طويلاً ثم قذفت إلى بثمانية أكياس ، فأسرعت إلى خارجة ورسمت له طريق العمل ، ودعوت له بالتوفيق .

— لقد أجاب الله دعاءك يا أخا « هبنقة » . ثم صاح : أين أشعب ؟ فجاء إليه يحجل في مشيته كما يحجل القرد راعته عصا صاحبه ، ثم رفع صوته محاكياً صوت الديك ، ووضع رأسه على الأرض ورجليه إلى الأعلى ، ثم انقلب فعاد كما كان ، وقال :

— هل يريد مولاي الأمير أن يعطيني شيئاً ؟

— أعطيك هذا ، ثم قنعه بسوط كان في يده ، فأخذ يحاكي صوت الكلب حينما يقذف بحجر ، فرمى إليه الوليد ديناراً فتلقفه بفمه في مهارة بارعة ثم قال :

— الآن نستطيع أن نتحدث ، ماذا يريد مولاي ؟

— تعرف ما كان من أمر ابن سهيل وعياض وعبد الصمد ، فقد اعتقلهم الخليفة وعذبهم عذاباً شديداً ، ثم أجبر مكرهاً على فك عقابهم ، وهم الآن في دورهم فاذهب إليهم وأحضرهم إلى الساعة .

— أتريد أن أحل محلهم في سجن الظلام ؟ إن كل واحد

منهم الآن محاط بجواسيس الخليفة ، فهل تظننى أبا رقية حتى
تقذف بى فى هذه المهالك ؟

— أتريد أن تعيش فى قصرى منعماً مترفاً دون أن تتعرض
لخوف ؟ إن الغم بالغرم يا ابن جبير .

— لقد لقنتنى أمى ألا أحمل غرمًا ، وألا أتعفف عن غم .
فأخرج الوليد من كمه كيساً وهزه فسمعت وسوسة الدنانير ،
وقال : وما تقول فى هذا ؟

— الآن أذهب ولعن الله أمى . ثم أخذ يمسح وجهه ويمسح
حتى بلغ وسط صدره وأصبح لا يعرفه من كان يعرفه ، ثم وثب
فاختطف الكيس من يد الوليد وانطلق كما ينطلق السهم عن
القوس .

وبعد قليل أقبل ندماء الوليد ضعفى يتوكئون حتى كأنهم
خرجوا من معركة أثخنهم جراحها ، وما كاد يراهم الوليد حتى
انقض عليهم معانقاً مقبلاً ، ثم صاح : على بالمغنين . على
بعمر الوادى وأصحابه . هذه ليلة الليالى وواحدة الدهر ؟ أوقدوا
الشموع جميعاً ، سننسى فى هذه الليلة الحياة ، وسننسى
الآلام ، وسننسى هشاماً . فأسرع المغنون إلى البهو ودخل بعدهم
نحو الأربعين من الجوارى والقيان ، بين روميات وفارسيات
وتركيات فى الملابس الزاهية والحلى الباهر . وكان عمر الوادى

قد لقنهن أبياتاً للوليد في سلمى ، فأخذن ينشدن معاً بصوت
ساحر بين رنين العيدان ونقر الدفوف :

خبروني أن سلمى خرجت يوم المصلى
فإذا طير مليح فوق غصن يتفلى
قلت : هل تعرف سلمى؟ قال : ها . ثم تدلى
قلت : هل أبصرت سلمى؟ قال : لا . ثم تولى .
ولعب الطرب بالرءوس ، وظفر شره العيون بجمال الوجوه
فكان يلثمها التهاماً . وصاح زستم : لرقص رقصة الفرس ،
لرقص الفترج ولننشد معاً :

نجا عياض وابن وهب قد نجا ونال مولانا الوليد ما رجا
هلم نرقص في هواه الفترجا

فأخذ كل رجل بذراع فتاة ، وتمايلت الرءوس ، وماست
الخصور ، وسأيرت الأقدام دقات الأنغام ، واحمرت الوجنات ،
ولعبت العيون ، وانطلقت الضحكات ، وطغى المرح فأطلق لنفسه
العنان ، وطار العقل وغادر المكان ، وكان صياح ، وكان
هرج ، وكان نرق . وبينما القوم في لهوهم إذ علا عند مدخل
البهو صوت فيه رصانة ، وفيه نبل ، فنظر القوم مبهورين فإذا
أم الوليد في جلال سمتها ، واعتدال قوامها ، ترسل نظرات ثاقبة
ملؤها الغيظ والغضب ، فأطرقوا في خشية وخجل . فقالت :

— ما هذا يا بنى إن جواسيس هشام تحيط بقصرى من كل جانب ، وقد كنت أرضى كارهة عن الغناء والطرب ، أما رقصات العلوج وضجيجهم ففوق احتمالى وأكثر مما تسبغه طاقتى .

وما سمعها القوم حتى تسللوا لواذاً مطرقين وجلين .
وبقى الوليد وأمه وأبو رقية فالتفتت الأم إلى الوليد وقالت :
يا بنى إن من يريد عرشاً لا يصل إليه من هذه الطريق ، وإن هشاماً يقعد لك كل مرصد ، ويسجل كل ما تأتى وما تذر ، ليثبت لرجال بنى أمية أنك لا تصلح للخلافة ، وأن الحقيق بها ابنه مسلمة . ولقد غشنى حبي لك على سمعى وبصرى ، فأغضيت عن شىء من اللهو ، ولكنى أراك تستمرى ما أنت فيه ، وتجاوز الحد فيما لا يليق بك . فبكى الوليد بكاء الطفل واحتضن أمه ، وسرت العدوى إلى أبى رقية فسالت دموعه مداراً . وقال الوليد . بين النحيب والنشيج :

— صفحك يا أمى . إنى ولد عاق حقاً . ولكن ماذا أعمل ونخيل سلمى يعاودنى فى كل لحظة فيؤجج أشجانى ، ويشير أحزانى ؟ وكلما حاولت نسيانه والانصراف عنه وثب أمامى ساحراً فتاناً ، يعبس مرة ، ويبسم أخرى ، ويغرس فى الأمل حيناً ، واليأس أحياناً ، حتى كاد يسوقنى إلى الجنون .

إننى يا أمى أحاول نسيانه بهذا الالهو ، وأجهد فى طرده عنى
بضرب الدفوف وعزف المزاهر ، إننى شقى يا أماه . جاه ومال
وسلطان ودولة ، ولكن أين السعادة بين كل هؤلاء ؟ لا أرى لها
أثراً ولا ظلاً من أثر . إن صلاحى فى سلمى ، وحياتى ومماتى
لها ، فلو أنى نلتها أو فزت بكلمة منها لكنت أتقى الأتقياء ،
ونخير الأصفياء .

وهنا تلثم أبو رقية والدموع لا تزال تنهمر من عينيه
وقال :

— إذا كان فى قرب سلمى صلاحك فلم لا تتزوجها ؟
فابتداه الوليد قائلاً : ألم تعلم بما كان من أبيها أيها المجنون ؟
ألم تعلم أنى أطرده دونها كما تطرد غرائب الإبل عن المناهل ،
وأنها أبعد إلى من مناط الثريا وأنأى من آمال الحمقى ؟
— هون عليك أبا العباس فكل شىء ينال إذا صبرت له
حتى آمال الحمقى .

— وكيف ذلك يا رضيع « الجرنفش » ؟

— إنى سأفكر بعقلى وأدبر لك لقاءها .

— لقد يشس العقلاء من اجتذابها إلى فلم يبق إلا المجانين !

— إن الناس يتقون العقلاء لأنهم يعرفون طرق تفكيرهم
فيحصنون منهم ، أما المجانين فلهم أسلوب من الحيل لا يهتدى

إليه العقلاء . سأذهب إليها غداً وستراها بعد غد .

فضحك الوليد ضحك اليائس ، وأخذ يسخر من أبي رقية ويهزأ به ، وأبو رقية مطرق لا ينبس . ثم طلب الوليد المصحف وشرع يقرأ حتى إذا انتصف الليل ذهب إلى فراشه .

وفي الصباح خرج أبو رقية من القصر ، ولما ابتعد عنه كثيراً وقرب من قصر سعيد بن خالد ، أخذ يهارش الصبيان ويغريهم بإيذائه ، حتى إذا وصل إلى القصر شرعوا يرمونه بالحجارة ، وقد كثر عددهم ، فطفق يصيح ويستغيث ، وقد شج رأسه ، فخرج العبيد فنادوا عنه الصبيان وأدخلوه القصر ، ولكنه استمر في عويله ، وأخذ يرفع الصوت بشتم الصبيان والدعاء عليهم . فأطالت عليه سلمى مع بعض جواريتها وقالت :

— ماذا أصابك يا أبا رقية ؟

— كل ما أصابني بسببك يا سيدتي .

— بسببي ؟ وهل أنا التي أغرت بك هؤلاء الشياطين ؟

— نعم أنت . رأيت لك رؤيا بالأمس فأعجبني ، فجئت لأبشرك بها ، فقابلني هؤلاء الأبالسة فشجوا رأسي . ألسنت أنت السبب في كل هذا ؟ فضحكت سلمى ضحكة فاتنة لو سمعها الوليد لباع بها ملك الشام والعراق ، ثم أدركتها شفقة على الرجل ، ورثاء لما أصابه ، وعطف بحسه

العاقل على المجانين ، فدعته إلى حجرها وقالت في دلال
وعجب :

— حدثني بحديث هذه الرؤيا يا أبا رقية .
— إنها رؤيا جميلة جداً لم أخبر بها أحداً ، وأنا واثق من
أنها ستقع ، لأنني لم أر شيئاً في المنام إلا تحقق كما رأيته : رأيت
مرة ليزيد بن عبد الملك أن حبيبته « حبابة » ستعود إليه ،
وقد كان يشس من لقاءها ، فعادت إليه بعد ثلاثة أيام ، ورأيت
لمسلمة بن عبد الملك قبل سفره إلى العراق أنه سيقود جيشاً
لمحاربة يزيد بن المهلب ، وأنه سيقته ، فلم يمض شهر حتى
تحققت الرؤيا . نعم يا سيدتي إن العقلاء يرون الأشياء في
النهار حينما تجيء ، ونراها نحن في الليل قبل أن تجيء .
فأغرقت سلمى في الضحك وقالت :

— أسرع أبا رقية ونخبني بهذه الرؤيا .
— لا بد أن آخذ البشرى أولاً .
— لك عشرة دنانير .
— لا يا سيدتي . وماذا أصنع بالدنانير ؟ إنني أريد منك
شيئاً أعظم من هذا ، بشراً أن تقسمي لي بجدك عثمان بن عفان
أن تعطيني ما أطلبه منك .
— أقسمت بعثمان فماذا تطلب ؟

— أطلب طبقاً من هريسة .

فأغرقت في الضحك ، وأعجبها ما في الرجل من بلاهة
وظرف ، وأشارت إلى الجوارى أن يغادرن الحجرة ، واتجهت
إليه قائلة :

— لك ما تطلب يا أبا رقية فاقصص رؤياك .

— رأيت يا سيدتى كأننى فى ميدان قصر الخلافة ، وإذا
بك أنت نفسك يا سيدتى تجرين فى دعر ووهل ، ووراءك
أسد مفترس ما رأيت فى حياتى أشد منه شراسة وأنكر زئيراً ،
وكنت تصيحين وتستجيرين . فاجتمع الناس وملثوا جوانب
الميدان ، فأعدت النظر إلى الأسد ، فإذا هو ينقلب رجلاً أزرق
العينين أحمر الوجه ، غزير شعر الحاجبين أصفر شعر اللحية
كثها ، عظيم الشفتين ، بخده الأيسر أثر ضربة سيف كاد يشوه وجهه .
فنظرت إليه سلمى فى ذهول وقالت :

— أنا أعرف هذا الرجل .

— أنا لا أعرفه يا مولاتى ، ولكنى فى النوم سمعت الناس
يصيحون . ابن عنبسة ، ولا أدري من هو .

— نعم هو ابن عنبسة ، يزيد بن عنبسة ، إنه خطبى
من أبى .

.. هذا لم يكن فى منامى ، ولا شأن لى بالرجل ولا بخطبته .

انقلب الأسد رجلاً على الوصف الذي ذكرت كأنني أراه أمامي الساعة ، وكان في يده خنجر همّ أن يطعنك به ، فصاحت وحاولت التخلص من يديه ، وبينما أنت كذلك إذ أقبل رجل يشق صفوف الناس ، وسيفه في يده ، وعلى وجهه الشهامة والبطولة وغضب الكريم لعرضه وشرفه ، فصاح الناس : الوليد أمير المؤمنين . الخليفة . فرجعت البصر فإذا هو مولاي الوليد ابن يزيد ، فسألت رجلاً بجاني : أأصبح الوليد خليفة ؟ فأجاب نعم أصبح خليفة أيها الأبله ، ألم تعلم أن هشاماً مات منذ سنوات ، وأنه الآن خليفة المسلمين ؟ فسكت وترقبت فإذا الوليد يهجم بسيفه فيشطر الرجل الذي أراد طعنك بخنجره شطرين ، ويأخذ بذراعك في رفق وحنان ، ثم يمشى بك حتى يبلغ دار الخلافة بين صياح الصائحين ، والدعاء لك ولزوجك أمير المؤمنين .

كانت سلمى ذاهلة واجمة ، كأنها تسبح في حلم آخر ، وكانت بفطرتها جمّة المطامع بعيدة الآمال طموحاً ، وكانت تبغض ابن عنبسة لثقل فيه ودمامة ، ولأنه جاوز سن الشباب ، فلما تعرّض لخطبتها طلبت من أبيها أن يسوّف الرجل ويمهله ، لأن قلبها كان يهفو إلى الوليد على الرغم مما عرف عنه ، وعلى الرغم من إباء هشام وتحريضه أباه ألا يزوجه إياه . كانت



تحب الوليد وتخاف رعونته ، وكان مما يزهدا فيه ويخفف من ثورة حبها له سعى هشام الحثيث لخلعه من ولاية العهد ، وإطباق أكثر الناس على أنه لا يصلح للخلافة ، بعد أن أرخى لنفسه العنان . وإذا ضاعت الخلافة من الرجل لم يبق منه إلا شبح هزيل من بنى الإنسان لا جاء له ولا غناء فيه . ولكن الرؤيا التي قصّها عليها أبو رقية محت من نفسها كل شك ، وأجّجت خامد الآمال . فالتفت إليه وقالت :

- وجم تعبر هذه الرؤيا ؟
- إنها لا تحتاج إلى تعبير ، إنها كفلق الصبح .
- وهل أصبح حقاً في يوم من الأيام زوجة الخليفة ؟
- ذلك بعد أن آكل الهريسة . فضحكت سلمى طويلاً ثم قالت :

- ولكنى لا أحب الوليد ، وقد خطبني من أبي فرد طلبه في عنف وإباء ، فكيف أتزوجه ؟ لا يا أبا رقية إنك واهم ، فلعلك رأيت في منامك فتاة أخرى تشبهني .

- لم أرك وحدى ، إن الناس الذين كانوا في ميدان الخلافة رأوك معي ، وقالوا : هذه سلمى بنت سعيد . على أنى أعرف أن الوليد بك صب مفتون ، وأنه إنما يعبت ويلهو لينسى حبك بعد أن أياسه أبوك من قربك ، فلو أنه ظفر بك لرأى في حبك

كل ما يحجبه عن اللهو والمرح . ثم إني لمحت منذ أيام أن جارية « عاتكة » بنت العباس بن الوليد قد أكثرت التردد على قصر حبابة ، وأكثرت من الخلوة بالوليد ، وعلمت من الجوارى أن عاتكة مفتونة بحب الوليد وأنها تحاول أن تجتذب مودته بعد أن يش منك . ولست أبالي أتزوج عاتكة أم أتزوج غيرها ، ولكنى لا أحب عاتكة لأنى أئتمنتها مرة على حجر قدفى به الصبيان فضيعته .

ثارت الغيرة فى نفس سلمى ، وتيقّظت فيها غريزة المرأة فقالت :
 — وماذا أعمل للوليد وقد رأيت أنه محجوب عني وعن قصرى ؟ ثم ماذا أصنع وقد أقسم أبى ألا يزوّجنى إياه ؟
 — إنه يريد أن يطفىء نار غرامه برؤيتك والحديث إليك ، أما زواجه بك فقد كتب فى سجل القدر ، ولن تستطيع يمين أبيك أن تمحو ما كتبه القدر .

— وكيف أراه وعلى ألف عين من أهلى ؟
 — ذلك هين يسير ، إنه سيأتى إلى القصر غداً متنكراً فى هيئة رجل يبيع ثياباً ، ومعه حماره وفوقه بضاعته ، ولا تتريب عليك فى شراء ثياب من بائع ثياب . فصاحت فى خوف ممتزج بالفرح :

— أنت أعقل مجنون رأيته يا أبا رقية .

— وأنت أجن عاقلة رأيها . عمى صباحاً ، أرجو ألا ألتقى بالصبيان في عودتي . ثم انفتل من حولها فكأنما ابتلعت الأرض . وعاد أبو رقية إلى القصر فالتقى به الوليد وأمه فحدثهما بكل ما حاك من حيلة وتدبير ، ودهش الوليد ، واستبد به الفرح ، وانكب على أبي رقية يقبله . وأرسل فاشترى أثواباً من جميع الأنواع ، وما جاء الصباح حتى غير من زيه وهيئته على نحو ما يرتدى باعة الملابس ، فلبس عمامة صفراء وسروالا فضفاضاً وصداراً من الصوف الحشن ، ولف حول رأسه شملة من الحرير الأحمر ، وخرج من القصر بعد أن وضع الأثواب فوق حمار هنزيل ، حتى إذا بلغ قصر سعيد نادى بأعلى صوته :

أثواب وألوان ، للعذارى الحسان . عندي من الحرير ، ما ليس له نظير ، حرير صنعاني ، وحرير تنيسي ، ونخز فارسي . ذهب بذهب ، وعجب من عجب . فسمعتة سلمى وأمرت إحدى جواريتها أن تدعوه ، فحمل بعض بضاعته ودخل القصر ، فقادته الجارية إلى حجرة سلمى ، فبهره حسناتها ، وكاد يفضحه جمالها ، وأخذ يتلعثم ويتمتم ، وهم بأن يمد إليها يده ، فنظرت إليه عابسة ، وأشارت إلى جاريتها بالخروج ، فلما خرجت رمى بالأثواب ، وانكب على يديها يلبسها لثماً وتقبيلاً ، وجعل يثن ويقول :

— ارحمىنى يا حبيبى . أنت حياة روحى ، وريحانة
نفسى ، أنت الهواء الذى أتنسم ، والأمل الذى أناغى ،
والسعادة التى أرجو وإليها أصبو . نظرة واحدة تكفينى ، وبسمة
تقنعنى ، وكلمة تفتح أمامى باب الرجاء .

— قم أبا العباس فى مثل ما بك ، وحي لك صدق
لحفات قلبك ، ولكن أبى والخليفة يحولان دون هذا الحب .
— إن الحب لا يعرف الحوائل ، إنه ينفذ إلى ما لا ينفذ
إليه الهواء ، ويخلق فوق ما لا يصل إليه جناح ، فإذا أحببتنى
فلا الخليفة ولا أبوك ولا الدنيا كلها بمستطاعة أن تقف بيننا .
— أحبك . فوثب عليها يقبل وجهها فى شغف وفتون .
فابتعدت عنه قليلا ثم قالت :

— اهدأ يا حبيبى فإنى لست لك بزوجة ، وخير لنا أن
نصبر حتى يصل الله بين حبلينا ، ويقرب منا ما بعد .
— إنى سأكون خليفة ، وسأنعم بزواجك .
— هذا لاشك فيه .

— ولن تتزوجى ابن عنبسة .

— لن أتزوج به .

— وكيف أظفر بقربك قبل أن يتم زواجنا ؟

— تبع أثواباً كل أسبوع ، وتأتى إلينا بتمنارك الناحل

الأعجف . ثم قامت كأنها تدعوه إلى الانصراف ، فوقف
يودعها طويلاً ، فلما خرج وضع الأثواب على حماره ،
وهو يكاد يطير من الفرح ، وأخذ يضرب الحمار بعصاه
ويصيح :

أثواب وألوان ، للعذارى الحسان !

نار ورماد

كانت دولة بني أمية عربية النزعة ، شديدة التعصب
لكل ما هو عربي ، تنظر إلى الأعاجم في تيه وتعاضم ، وتحول
بينهم وبين مناصب الدولة ومراتبها . ثم اشتط بعض الأمويين
وغلا في إحياء نزعات الجاهلية ، ونبش ما دفن من أحقاد
القبائل التي جهد الإسلام في إيماتها ، واجتثاث أصولها .
فكان الخلفاء يؤثرون بعض القبائل بالمودة والعطاء والتجاوز
عن عدوانهم ، وكان كل وال من ولايتهم يختص قبيلته بالبذل
والمحاباة . فمرة تكون المحاباة لليمانية ، ومرة تكون للمضرية .
وكان الناس يشعرون بكل هذا فيطرقون واجمين ، ويسكتون
وجلين ، حينما كانت الخلافة في عنفوانها ، والدولة في شبابها ،
والسيف مصلتاً فوق الرءوس ، والولاة كلهم من طينة الحجاج

ابن يوسف الذى كان يقول : من قال برأسه هكذا ، قلنا له بالسيف هكذا ! فلما ضعفت الدولة بعد موت الوليد ابن عبد الملك ، تطلَّعت رعوس من الفرس كانت مدفونة تحت أطباق الخوف ، ونطقت أفواه من بنى العباس كان يسكتها الذعر والحذر . وامتدَّ الزمان بدولة بنى أمية فزاد ضعفها باستئامة رجالها إلى النعيم ، ففقدوا رجولتهم ، وتسلبوا من خصائص عروبتهن . فكان ضعفهم قوة لأعدائهم ، وتراخى حبلهم شدة وبأساً للخارجين عليهم . لهذا قوى أمر بنى العباس بمعاونة الفرس فى أواخر عهد هشام ، وتجمَّع الناس حول دعائهم بخراسان ، وتكوَّنت فى أكثر أقطار الدولة جماعات من أنصارهم ، كانوا جميعاً يعملون سرّاً ، ويعدون العدة فى الخفاء ، وينتظرون الفرصة للانتفاض على الدولة وثل عرشها .

وكان بدمشق كثير من المحتطبين فى حبل العباسيين بين فرس وعرب ، وهؤلاء كانوا يبعثون بأخبار الخلافة وأسرارها إلى الزعماء بخراسان ، ويتلقون أوامرهم وإشارتهم . وكانوا ينبئون بين الناس فيشيعون بينهم مساوئ الخلافة ، وهفوات فتیان بنى أمية ، بأسلوب شيطاني عجيب لا يلصق بهم تهمة ، ولا يدع لسامعيهم شكاً فى أنهم أمناء مخلصون للدولة ، حريصون على بلوغها ما ينبغى لها من عظمة ومجد . يبدأ الرجل

منهم فخوراً بمكانة الخلافة وفضل رجالها الأولين ، وقوادها
 السالفين ، وأنها رفعت راية الإسلام ، ونشرت كلمة التوحيد
 في كل مكان ، ثم يقول في رنة حزن وبصوت تكاد تخنقه
 الغيرة ، وتقلبه الحمية بكاء : هدى الله خلفاءنا السداد ،
 وألم فتيانهم التوفيق ! أكان يفعل هشام كذا لو كان عمر بن
 عبد العزيز حياً ؟ وهل كان يفعل الوليد كذا لو كان عبد الملك
 ابن مروان حياً ؟ ثم يزفر زفرة طويلة ويرفع عينيه إلى السماء
 داعياً للإسلام والمسلمين . هكذا كانت تعمل هذه الفئة
 الثائرة . ومن أخاليق هؤلاء وأكاذيبهم امتلأت كتب الأدب
 والتاريخ بكثير من مثالب الأمويين . وكان بين هذه الطائفة
 أشخاص اندسوا في قصور الأمويين ليكونوا عليهم عيوناً ،
 ولينقلوا أسرارهم إلى أعدائهم .

وفي إحدى ليالي شهر رجب سنة أربع وعشرين ومائة وصل
 من دمشق إلى الكوفة إسماعيل بن يسار رسولا من الشام من
 قبل محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، فنزل بدار بكير بن
 ماهان وكان من كبار أنصار العباسيين ، وأخبره بما قدم إلى
 الكوفة بسببه ، فسَّهل له بكير لقاء سليمان بن كثير الحراني زعيم
 جماعتهم ومالك بن الهيثم ، واتفقوا على زيارة يونس بن عاصم
 وعيسى وإدريس ابني معقل في السجن ، وكان قد اتهمهم

يوسف بن عمر عامل هشام على خراسان بالدعاء إلى بني العباس .
فلما ذهبوا إلى السجن قابلهم حارسه وكان رجلاً غليظاً مفرطاً
في الطول ، متين البناء ، ينطق وجهه بالشراسة والشر . فتعمد
ابن كثير أن يسقط من كمه ديناراً ، فأخذ يدور فوق
الأرض ، فانقضَّ عليه الحارس يلتقطه ، ثم رفعه إلى ابن
كثير قائلاً :

— هذا دينار سقط منك يا رجل . فقال ابن كثير :
— خذه جزاء أمانتك ، فانما اللقطة لمن وجدها . ثم تعمد
إسقاط دينار ثان فانكب عليه الحارس وقال : وهذا دينار
آخر . فأطبق عليه ابن كثير كف الحارس وقال :
هو لك أيضاً ، فقد أحسنت في الأولى والثانية ، وهل
جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ فبهت الحارس لهذه الأريحية ،
ثم اتجه إليه ابن كثير سائلاً :

— هل بين ضيوفك في هذا السجن عيسى بن معقل ؟
فاننا قوم من أهله جئنا لنراه ولنحدثه في أمور أولاده وضياعه .
— إن ابن عمر يحظر أن يلقاه أحد ، ولكن أوامر الرؤساء
دائماً تصدر لتنقض ، فلا تثريب عليكم من أن تروه على شرط
ألا تطيلوا المكوث ، وعلى شرط ألا تتحدثوا في أمر بني العباس .
— إن لنا من الشغل بأنفسنا ما يذودنا عن الحديث في

شئون غيرنا . وأشار إليهم الحارس بالدخول فوصلوا إلى حجرة المسجونين ، وكانت واسعة فسيحة منعزلة في ناحية من البناء ، وما كاد يراهم من بها حتى أسرعوا إليهم فرحين معانقين ، وأخذوا يمطرونهم بالأسئلة عن محمد بن علي بن عبد الله وعن ابنه وخليفته إبراهيم الإمام ، ثم عن الدعوة بخراسان ، وعن قوتها ونشاطها وانتشارها . وكان يخدمهم بالسجن شاب قصير في نحو الرابعة والعشرين ، أسمر اللون نقي البشرة أحور العينين عريض الجبهة ، كانوا يدعونه أبا مسلم ، وهو أبو مسلم الخراساني الذي كانت تدخر له الأيام عظمة ومجداً ، وهو الذي أقام بسيفه ورأيه بعد ثمانى سنوات لبني العباس دولة شاحخة الذرا راسخة البنيان .

جلس الجماعة بعد التحية وتبادل الأشواق ، فقال ابن كثير في صوت خافت :

— هذا إسماعيل بن يسار شاعر الطائفة العباسية ومذيع فضلها وناشر مناقبها ، قدم بالأمس من الحميمة بعد أن قابل ابن عم رسول الله وزوّده بما يجب علينا عمله لإشعال الثورة على الأمويين وبثها في كل مكان ، وهو يستطيع أن يحدثنا بكثير من أخبار فتيان بني أمية وعبيثهم ، وسخط الناس عليهم ، وقد يهدينا تبادل الرأي وتجادب التفكير إلى ما يحسم هذا الأمر ،

وإلى أن نرسم طريقاً لا حياً نمضي فيه إلى الغاية موفقين . لقد بلغ السيل الزبي ، وجاوزت الشدة طاقة الاحتمال ، ولا بد من ضربة سيف قاصمة مصممة تفرق بين الحق والباطل ، وتعيد الخلافة إلى أهلها . فصاح أبو مسلم والدموع تتناثر من عينيه :
 — نعم لا بد من ضربة سيف ، ولا بد أن يمحي كل أثر
 لأبناء عبد شمس .

— اهدأ يا بني فإن الرأي لا تنضجه نيران الغضب .
 — إن الغضب هو الذي يصهر العزائم ويشحذ الهمم ،
 وما حاجتي إلى رأي هزيل تزيد الشكوك ضعفاً وهزالاً ؟
 فالتفت ابن كثير إلى ابن معقل في دهشة وقال :
 — من هذا الشاب ؟

— هذا أبو مسلم أشدنا حماسة إلى الدعوة ، وهو أرهف
 من سيف ، وأنفذ إلى مطالبه من سهم ، إن نار الثورة تسرى
 في شرايين جسمه ، وإننا نسميه صخرة الأرض وداهية الدواهي .
 — هذا كله حسن ، ولكني أحب أن يضم إلى فورة
 شبابه حكمة الشيوخ ودهاءهم .

— إن عنده من ذلك الشيء الكثير فلا يلفتك أمره عما
 نحن فيه .

— أظن أن الكلام في جبروت الأمويين وحرمانهم إيانا

مناصب الدولة قد أصبح كلاماً مكرراً ، وحديثاً معاداً .
فقال إسماعيل بن يسار :

— إنهم يتعالون علينا ويشتمون بأنوفهم حتى كأن الله
خلقنا من طين وخلقهم من مسك وكافور . فقال عيسى
ابن معقل :

— إن دين الله لا يفرق بين عربي وأعجمي ، ولا بين
مصري ويمني ، ولكن هؤلاء القوم يكيأون للناس بمكيالين ،
وينزلونهم منزلين ، وينظرون هؤلاء بعين وأولئك بعين ، ثم
يزعمون أنهم نصراء القرآن وحماة الإسلام . وهذا وثب أبو مسلم
واقفاً وقال :

— لو زرت خراسان اليوم يا صاحبي لرأيت الأعاجيب .
فقال ابن يسار :

— إن ما نلقاه بالشام أعجب وأغرب يا فتى . أنشد هشاماً
مرة قصيدة فدفعني الاعتزاز بقومي إلى أن أفخر بالفرس وأشيد
بمجدهم القديم ، فما كان منه إلا أن غضب حتى نفرت
أوداجه ، وصاح في جبرية وزهو ؛ أعلى تفخر بقومك أيها
الأحمق ؟ وإياي تنشد قصيدة تمدح فيها نفسك وأعلاج
قومك ؟ ثم أمر عبده أن يغطوني في الماء ، ففقدوني في بركة

حتى كدت أغرق ، ثم أمر فنفيت إلى الحجاز . فصاح عيسى
ابن معقل ماذا كانت قصيدتك لله أبوك ؟
— قلت فيها يا سيدي :

إني وجدك ما عودي بذى خور
عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم
أصلي كريم ومجدي لا يقاس به
إلى لسان كحد السيف مسموم
أحمي به مجد أقوام ذوى حسب
من كل قرم بتاج الملك معموم
ججاجح سادة بلج مرازية
جرد عتاق مساميح مطاعيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معاً
والهرمزان لفخـر أو لتعظيم ؟

فصاح القوم لا فض فوك يا ابن يسار ، بمثلك تهض الدعوة
وتتأجج الثورة ، فلما عادوا إلى الحديث قال إسماعيل : أما العيث
بين فتيان بنى أمية فقد بلغ الغاية ، وقد جهدنا جهدنا
في إذاعة مثالبهم ونشر أخبارهم ، ووصمهم بكثير من النقائص
بالحق وبالباطل ، حتى أصبحوا حديث كل غاد ورائح ،
وأخذ الناس يشعرون بوجوب زوال دولتهم وانتهاء أمرهم .

والوليد بن يزيد سادر في غلوائه ، لا يقف في طريقه شيء ،
 وإذا نصحه ناصح ، أو زجره زاجر زاد عناداً وتحدياً ، كأنه
 يتعجل نهاية أيام بني أمية . وهو ولي العهد ، وإذا ولي الخلافة
 على تلك الحال قوى ثورتنا ، ومكّن لدعوتنا ، وقدم الخلافة
 هدية سائغة هنيئة لأمير المؤمنين ابن العباس . لكل هذا تعمل
 جماعتنا بدمشق على إحباط كل مسعاة لهشام في خلعه من ولاية
 العهد ، ونقلها إلى ابنه مسلمة . ولأجل هذا نحت دائماً رستم
 غلامه على أن يوحى إليه بكل شنعاء . وعندكم بخراسان جماعة
 منظمة تبعث بالحواري الحسان إلى قصور أمراء بني أمية لإغرائهم
 بالتبذل ، وليكن جاسوسات عليهم ، ينقلن أخبارهم ، ويفشين
 أسرارهم . وقد نجحن كثيراً وأصبحن المتحكّمات في الدولة ،
 المسيطرات على خلفائها وقوادها . ولو طال عمر « حباية » جارية
 يزيد بن عبد الملك قليلاً ، لانتهى حكم بني عبد شمس منذ
 حين ، ولكننا اليوم ناعمين هائثين في ظل خلافة بني العباس .
 فصاح أبو مسلم :

— لقد طال حكم هشام حتى كاد يدب اليأس إلى نفوس
 بعض ضعاف العزائم من شيعتنا . فقال ابن يسار :
 — لقد طال حكمه حقاً ، وهو قاس صارم يريد أن يعيد
 الأموية إلى ما كانت عليه أيام معاوية ومروان وعبد الملك .

شحيح بالمال جماع له ، كأنه يريد أن يصون كل دينار ودرهم لحماية الخلافة والذود عنها إذا خرج عليها خارج . فلم يعط أحداً من بنى مروان عطاء إلا إذا خرج للغزو بنفسه أو أخرج من ينوب عنه . ورد عليه يوماً محمد بن زيد للعطاء فقال له : « مالك عندي شيء ، وإيّاك أن يغرك أحد فيقول لك : إن أمير المؤمنين لم يعرفك ، فوالله لقد عرفتك ، أنت محمد بن زيد ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فلا تقيمن وتنفق ما معك ، فليس لك عندي صلة » . فعاد الرجل إلى المدينة بخفي حنين . وبعث إليه أحد عماله بسلّة خوخ فكتب إليه : قد أعجب الخوخ أمير المؤمنين ، فزدنا منه واستوثق من الوعاء حتى لا يسرق في الطريق . وأخبرني غلامه فيروز أن بعض المشرفين على ضياعه بعث إليه خادماً بطائرين ظريفيين ، فدخل عليه وهو جالس في سرير في عرصة الدار ، فقال للخادم : أرسل الطائرين لأنظر إليهما ، فأرسلهما ، ولما أراد الخادم الانصراف طاب جائزته ، فقال له هشام : ويلك وما جائزة طائرين ؟ قال : أي شيء تجود به . قال : خذ أحدهما . فعدا في الدار خلفهما ، فقال له هشام : ماذا تصنع ؟ قال : أختار خيرهما . قال : أختار خيرهما وتدع لي شرهما ؟ لا والله لا نلت منهما ريشة ، لعن الله ناقة حملتك إلينا ! وهذا هو الرجل الذي تخضع

الدنيا لأمره ، وتجيى إليه ثمراتها . ولقد كان مرّة في أحد
بساتينه ، والزّراع يجمعون الزيتون ، فرآهم يهزون الأشجار ليتناثر
زيتونها ، فصاح : القطوه لقطاً ، ولا تنفضوه نفصاً فتنفقاً عيونه ،
وتنكسر غصونه . هذا هو هشام : بخل فكرهه الناس ، وقسا فحقد
عليه الناس ، وطال عهده فضجر منه الناس . فقال ابن كثير :
— إنه الصخرة الصماء التي تتحطم حولها آمالنا ، والتي
يجب أن تزول من الطريق . فقال ابن يسار :

— إنه مصاب بذبحة الصدر ، ولولا دواء مزجه له طبيبه
« فرات بن شحناثا » لقضى عليه منذ سنوات ، واستراحت
الدنيا منه ومن صلفه وشحه . فزفر عيسى بن معقل طويلاً ثم
قال : ألا يستطيع فى أحوذى أن يروى خنجره بدمه ؟ .
فأجاب ابن كثير :

— إن الأمر لا يحتاج إلى كل هذا ، فقد يكفى أن نوزع
إلى خادمه فيروز أن يريق ما فى زجاجة الدواء ، ويضع مكانه
ماء بلونه ، فإذا أدركته النوبة وأسعف بالدواء لم يغنسه
الماء شيئاً . فصاح جميعهم هذا رأى صائب . مر فيروز أن
يفعل هذا يا ابن يسار . وهنا عاد ابن كثير إلى الحديث فقال :
لنوجز الآن ما استقر عليه رأينا ليعمل كل منا على إنفاذه وليباغ
ابن يسار إلى الإمام محمد بن على . فقد رأينا أولاً أن نبث بين

الناس بغض بنى أمية والسخط على حكمهم ، وأن نبتدع
الأقاصيص والأخبار التى تشوه سيرتهم وتثير الضغينة عليهم ،
ثم أن نغرى الوليد بالاستمرار فيما هو آخذ فيه بكل ما فى مكنتنا
من وسائل ، وأن ندلل له السبيل إلى الخلافة فإنه لن يملك
بها أياماً حتى تدول ، ثم أن نقلل من مدة هشام ، وأن نقطع
الحيط الذى يصله بالحياة ، وعلينا أن نفكر فى كل لحظة فى
اليوم الذى تنجلي فيه هذه الغمة حتى كأنه الغد ، وأن نسخر
من العقبات التى يضعها أجراء بنى أمية فى طريقنا . هلم الآن
فقد طال بنا الجلوس .

ويخرج الزوار فيمرون بالحارس لدى الباب ، فيتمجه إلى
ابن كثير وهو يقول فى سخرية ودهاء :

— الآن لا تسقط دنائرك أيها الشيخ !

— كان بثوبى فتق فأصلحته .

— أخشى أنك تعمل أنت ومن معك لفتق لا يرتق .

— قد يكون الهدم إصلاحاً فى كثير من الأحيان .

— إلا أن تهدم داراً على ساكنيها . احذري يا شيخ فإنى أبجد

فى أعطافك ريح الثورة . والثورة نار مجنونة ، تأكل أول ما

تأكل مشعلها ، اذهبوا فإنى لا أرى فى وجوهكم خيراً .

فسار الثوار حتى بلغوا دار بكير بن ما هان ، وأقام معهم

إسماعيل بن يسار أياماً ثم عاد إلى دمشق لينهض العزائم ويثير
الهمم .

موت وحياة

مرّت شهور والوليد بن يزيد لا يزال يزور قصر سلمى في كل
أسبوع لبيع الثياب ، حتى بايت الثياب وملّ الحمار . ومرت
شهور وهشام ما زال يتحرّق غيظاً على الوليد وعلى أنصاره الذين
تحدوه واختطفوا ابنه مسلمة ، وجعلوا رده ثمناً لفك من اعتقلهم
من أصحاب الوليد . ومرت شهور ويزيد بن عنبسة لا يزال يلح
على سعيد بن خالد في أن يزوجه سلمى ، وهو يرجئه ويرأغه ،
ويرده خائباً محسوراً . وفي ذات يوم أعلمته « صدوف » إحدى
جوارى الوليد ، وكانت جاسوسة له عليه ، أن الوليد يزور سلمى
في كل أسبوع في هيئة بائع ثياب ، فيتبادلان الحب والصباية ،
فزاد حقه على الوليد ، وأخذ يدبّر له الغوائل .

وساقته قدماء يوماً إلى دار الخلافة ، فلما بلغ قاعة الحكم
رأى « يعقوب » حاجب هشام لدى الباب ، فسأله عن الخليفة
فقال :

— إنه بالقاعة مع كثير من رجال بني أمية ، وهم يتحدثون

فى أمر ذى بال ، وقد حجب الباب ، وأرسل رسولا إلى دارك .
— نبته بقدمى يا يعقوب ، فإنى أود أن أحدثه أيضاً بأمر

ذى بال . ودخل يعقوب وعاد سريعاً بالإذن ، فلما مثل ابن
عنيسة أمام هشام رآه مطرقاً ، وقد اربد وجهه ، وانتفض عرق
بصدغه الأيسر كان ينتفض كلما غضب ، ورأى عنده يزيد
ابن الوليد والزهرى ومحمد بن هشام المحزومى وأنخاه إبراهيم وبنى
القعقاع العيسى ، ثم العباس بن الوليد ويزيد بن خالد .

سلم ابن عنيسة فرفع هشام رأسه متثاقلاً وقال : وعليك السلام
يا ابن عنيسة ! هلم إلينا فإننا بصدد أمر خطير سيكون له ما بعده ،
ونرجو أن نخرج بعد أن نكون قد نصحننا لله ورسوله ولصالح
المؤمنين . هذا ابن أخى الوليد قد شرد على الله شراد البعير ،
وجالس قرناء السوء ، وركب رأسه جامحاً . ثم هو لا يزيده
النصح إلا إسرافاً فى العناد ، ولقد عاهدت أخى يزيد
ابن عبد الملك وحلفت له أوثق الأيمان أن تكون الخلافة له
من بعدى ، ولم أكن حين أقسمت أعلم أنى أقسمت على أن
أترك زمام الخلافة وهى معقد آمال المسلمين ، ومعقل
أمنهم ، فى يدي مثله ، ولكنى أقسمت حين أقسمت وأنا
أرى غلاماً أزهر الوجه ، نبيل السمات ، توحى مخايله بصدق
الآمل فيه ، وتنطق ملامحه بالثقة به ، ورب سم كامن فى الزهر

النضير ! وموت راكد في الماء النير ! وأنا الآن يا بني مروان بين
 خلتين ؛ إما أن أترك الأمة بعد موتى تنساق إلى الدمار بولاية
 الوليد وهنا النازلة الفادحة ، والقاصمة القارعة ، وتمزيق أوصال
 الدولة ، وفناء بني أمية بالموت أو بالذل والهوان . وإما أن أحمي
 ما ورأى ، وأتخذ الأهبة للقاء ربي ، وأصون تراث آبائي ،
 فأخلع الوليد من ولاية العهد ، وأختار للمسلمين رجلاً يحمي
 ذمارهم ، وللخلافة من يبعث فيها العظمة والقوة والشباب .

فقال يزيد بن الوليد : لا يصلح لها إلا ابنك مسلمة .

— دعك من هذا الآن يا ابن العم ، فلن يحسن في هذا
 الأمر إلا أن ننسى أنفسنا وأبناءنا ، ووالذي نفس هشام بيده
 لو علمت أن صلاح هذا الأمر في اعتزالي لاعتزلت ، ولو علمت
 أن غير مسلمة أقوى بالخلافة كاهلاً ، وأضبط يداً لقدمته
 عليه . فأسرع إبراهيم المخزومي قائلاً :

— لن تصلح الخلافة إلا بك يا أمير المؤمنين . وإذا كان
 لنا في الله رجاء فهو أن تبقى فيك ثم في ابنك مسلمة من بعدك ،
 فإنه بضعة منك ، فيه ما فيك من دين وسياسة وحزم . فصاح
 أبناء القعقاع : لن نرضى بمسلمة بديلاً ، أما الأيمان التي
 عقدتها لأخيك لتولية ابنه من بعدك فإن الله يحلك منها . وهنا
 قال الزهري في صوت خافت :

— يرى بعض المفسرين في قوله تعالى : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس » أن المعنى لا تجعلوا القسم بالله حائلاً بينكم وبين البر والتقوى والإصلاح بين الناس ، فإذا حلف زجل أن يأتي منكراً وجب عليه أن ينقض يمينه ويكفر عنها . فقال ابن عنبسة : هذا تفسير عظيم . وأسرع هشام فقال :

— إذاً أنا في حل من هذه الأيمان ولم يبق إلا أن نكتب ميثاقاً ندون فيه مساوئ الوليد ومثالبه ، وأنه لا يصلح للخلافة ، ونثبت فيه محامد مسلمة ومناقبه ، وأنه خير من يقوم بها من بنى أمية ، وأن أمير المؤمنين لكل هذا خلع الوليد من ولاية العهد ونقلها إلى مسلمة . أين سالم أبو العلاء ؟ فتحرك العباس ابن الوليد في مجلسه قليلاً ، وهو يكبت غيظاً دفيناً ، وقال :

— قبل أن تدعو كاتبك يا أمير المؤمنين أرى أن نبحث في الأمر حتى نصل فيه إلى غاية تشلج الصدر ، وتبدد الشكوك . فأجاب هشام غاضباً :

— ألم نحص الأمر بحثاً ودراية ؟ ألم يصبح عبث الوليد حديث الناس ومسلاتهم في أسماهم ؟ أليس ابنى مسلمة دينه وعقله خيراً ألف مرة من الوليد ؟ فأجاب العباس :

— إن الأمر يا أمير المؤمنين أعظم خطراً من أن نتقنع فيه

بالحياء ، وأجل شأناً من أن نجتذب فيه رضاك ، أو نجتنب فيه سخطك . أنا شاك غير مستيقن بكل ما قلتم ، فلا الوليد قد وصل إلى تلك الهاوية التي زعمتم ، ولا مسلمة قد بلغ تلك القمة من الصيانة والتقوى ، ولا تلك الأيمان التي أكدتها لأخيك أصبحت لغواً فصرت في حل من نقضها . فبهت من بالمجلس ، واصفرَّ وجه هشام ، واحمرت عيناه من الغيظ ، وضرب عرق صدغه ، وانتفض وصاح حتى ملأ صوته القاعة :

— هكذا أنتم دائماً يا أولاد الوليد بن عبد الملك ! تحقدون على وعلى أولادى ، ولقد كاد يسلبكم الضغن عقولكم حين ما ازورّ عنكم وجه الخلافة بعد أن تجاذبتم أطرافها ، فأصبحتم تعدون علينا الأيام ، وتتمنون أن تقلّص عنا ظلالها . إنكم أعظم كيداً للخلافة ، وأكثر عدواناً عليها ، من العباسيين والعلويين والترك والديلم ، ووالله لولا خشية منه ، ولولا أن يقول الناس حارب هشام أهل بيته ، لبدأت بكم قبل أن أبدأ بمقاتلة المتألبين على الدولة من الخوارج . أما قولك إنك في شك من الأمر فباطل يراد به إزهاق الحق ، وإطلاق شيطان الفتنة من عقاله ، ليعيث معكم في الدولة كما تعيشون . فوقف يزيد بن خالد وقفة المناضل المتحدى وقال :

— مهلاً أمير المؤمنين ، فنقل الخلافة من رجل إلى رجل أمر جليل ، لا يكفي فيه أن يكون أمير المؤمنين ساخطاً على هذا أو راضياً عن ذلك . لقد قال العباس حقاً ، وإن رأى من تجمعهم اليوم من أنصارك لا يكفي لإقناع الأمة وحملها على نبذ العهد الذي عاهدتك عليه . والأمر شديد الخطر على أمير المؤمنين قبل أن يكون شديد الخطر على الوليد . لقد بايعك الناس في عهد واحد وفي ميثاق واحد على أمرين لا على أمر واحد ، بايعوك بالخلافة ، وبايعوك على أن تكون الخلافة من بعدك للوليد بن يزيد ، فإذا نقضت بعض العهد يا أمير المؤمنين انتقض كله ، وتحلل الناس من البيعة لك ، وصح لكل خارج عليك أو ضجر من حكمك أن يصبح في الناس : أيها المسلمون . إن هشاماً نقض العهد الذي بينه وبينكم ، فليس له في رقابكم بيعة . أتريد أن يحصل هذا يا أمير المؤمنين ؟ أتريد أن توظد راقدة الفتنة وتعيد أيام صفين حين احتكم المسلمون إلى سيوفهم في شأن الخلافة ؟ إن هؤلاء يا أمير المؤمنين الذين يزينون لك ما تحب ، ويقربون لك الأقصى مما تريد ، أعداء في ثياب أصدقاء ، أو مخبولون في مسوك عقلاء . ثم من هم أبناء الوليد الذين يكيّدون لك ويدبرون السوء لدولتك ؟ أتستطيع أن تشير إلى واحد منهم عن بيعة ويقين ؟ دلك من كل هذا

يا أمير المؤمنين ، واترك الأمر كما هو ، فلسنا في حاجة إلى فتن جديدة نشعلها بين الناس ، فإن الفتن تنبت في كل مكان ، وإن تحت الرماد للهيبة وضراماً . وما كاد يسكت حتى ابتدره ابن عنبسة قائلاً :

— ما هذا التهويل يا ابن خالد ، أنا أعرف صلتك بالوليد ومحبتك له وتهاديكما الجوارى الحسان ، وأعرف أنك تطمع أنت والعباس في أن يكون لكما شأن في خلافته بعد أن انبتت بكما الحبل في هذه الدولة . ثم ما أخلوكة البيعة هذه التي إذا انتقض بعضها انتقض كلها ، وهنا تتم الإمام الزهري قائلاً :

— إن ما قاله ابن خالد حق ، لأن الجزأين متلازمان . وقد تفهم البيعة على وجه آخر ، هو أن الناس بايعوا هشاماً بالخلافة على شريطة أن يتركها بعده للوليد ، فإذا أقصى الوليد عن ولاية العهد فقد نقض شرط ما بايعوه عليه ، وبهذا تسقط بيعته من أعناقهم . فوجم هشام ، وجف ريقه ، وظهرت الحيرة على وجوه أنصاره . وهنا قال العباس :

— قلت إن عندي شكاً ، ولم أكن في هذا القول كاذباً ولا متجنياً ، إن أكثر ما يشاع عن الوليد إفك ومين ، وهي أكاذيب ولع الناس بها ، واختلقها قوم لهم في اختلاقها مآرب ومغرم . فعجل الزهري وقال :

— لا يا ابن الوليد لقد رأيتك بعيني وحوله القيان ينقرن
الدفوف ، والمغنون يضربون على البرابط والطناير .

— هذا يا مولانا أمر لا يخاو منه قصر من قصور بني أمية .
ثم التفت إلى هشام قائلاً : ثم إني لا أعرف من رجال بني أمية
من يبغض الوليد إلا القليل ممن يحيطون بهذا القصر ، ويتزلفون
إلى صاحبه . ولو أنك يا أمير المؤمنين خلعت الوليد لأثرت فتنة
شعواء في حياتك ، وفرت كلمة المسلمين بعد مماتك . فإني أرى
بعين الغضب-- وأطال الله بقاء أمير المؤمنين-- أن الناس سيختلفون
بعد موتك ، وسوف يعد كثير منهم نقضك الولاية لأوليد أمراً
باطلاً ، فينصرفون إليه ، ويبقى فريق مع مسلمة ، ويتقاتل
الفريقان ، ويأتى العباسيون فيضربون هذا بذلك ويختطفون
الخلافة من أيديهم . يا أمير المؤمنين : دع الأمر كما هو ، ودع
كلاب الفتنة نائمة ، فإني أخشى أن نكون كالتى نقضت غزلها من
بعد قوة أنكاثا . والله يعلم أنى لك ناصح وعلى خير المسلمين أمين .
فانتفض هشام واقفاً وقال : اذهبوا عني الآن ، فإن عظمي
يكاد يطير من رأسي ، اذهبوا فلا خلافة رب يحميها ، وأين
هشام إذا أراد أمراً وأراد الله غيره ؟ فانصرف القوم في وجل
ورهبة ، وبقي ابن عنبسة متخلفاً ، فلما خلت القاعة التفت
إليه هشام وقال في ألم ممض :

— طار العصفور من أيدينا ، وبقي على دوحته ينظر إلينا
مغرداً ساخراً . لقد خاب الأمل في بني أمية .

— دعه يغرد قليلاً يا أمير المؤمنين ، فإننا سنعد له بعد
قليل فخماً وسكيناً .

— كيف يا ابن عنبسة ؟

— إذا لم نستطع خلعنا من ولاية العهد استطعنا خلعنا من
الحياة .

— معاذ الله أن أمد يدي إلى الوليد بسوء ، لا تفكر في
شيء من هذا يا ابن عنبسة ، أتريد أن تجعلني أحدى في
الناس وأن يقول القالة إن هشاماً قتل ابن أخيه ؟

— لن يكون لك يا أمير المؤمنين في هذا الأمر ورد ولا
صدر ، وإنما .

هو الموت يعتام الكرام ويصطفى

عقيلة مال الفاحش المتشدد

— لا . لا . يا يزيد ، وإياك أن تقتل نفساً حرم الله
إلا بالحق .

— لقد كنت أفكر يا أمير المؤمنين في التخلص من الوليد ،
لا لأنه يزاحم مسلمة في الخلافة فحسب ، بل لأنه يزاحمني في
سلمى بنت سعيد .

— لقد حلت بينه وبين هذه الأمنية ، وأمرت سعيداً ألا يرضى به زوجاً لبنته .

— من يدري يا أمير المؤمنين ؟ فإن الأحوال قد تحول ، وقد يصبح سعيد له راجياً بعد أن كان آيباً .

— ماذا تريد أن تقول لا أم لك ؟

— أطال الله حياة أمير المؤمنين ومد في عمره .

— سمعت هذه الدعوات من آلاف الآلاف من الناس ،

ولكن الدعاء لا يمنع القدر .

— إن لكل نفس أجلاً يا أمير المؤمنين لا تستقدم عنه ساعة ولا تستأخر .

— دعك من ذكر الموت ، ونخض في حديث آخر .

— كانت لي جارية اسمها «صدوف» يا أمير المؤمنين اشتراها

منى الوليد من خمس سنوات ، وهى لا تزال تهفو إلى ، وتحن إلى

ذكرى ، وتنقل لى أخباره . ولو أنى أمرتها أن تثب فى النار ،

أو تنام فى خيس الأسد لفعلت مطبعة راضية ، وقد كنت أريد

إغراءها بقتل الوليد قبل أن يستنكره أمير المؤمنين وينهى عنه ،

وأمير المؤمنين واجب الطاعة ، وقد كان الأمر جده هين ، فإن

مروان بن الحكم الذى كانت تنتفض منه قلوب الأبطال رعباً ،

لم يقتله إلا امرأة هى زوجته أم خالد ، فقد وضعت على وجهه

وسادة وهو نائم ، فلم ترفعها عنه حتى مات . فأغمض هشام عينيه وغادر الحجرة غاضباً وهو يقول : احذر يا ابن عنبسة أن تدنس يديك بالدماء ! إني أنهارك إني أنهارك !

وخرج ابن عنبسة من عند الخليفة بعد أن خدعه وأظهر له العدول عن الفتك بالوليد ، والتقى بعد أيام بصدوف في داره ، لأنها كانت تتغفل أهلها وتختلس زيارته بين الحين والحين ، فأحسن لقاءها ، وأكثر من الحفاوة بها ، وطوقها بهالة من غزله وتشبيبه ، وبها كثيراً من أشواقه فأججج في قلبها ناراً كاد يطفئها اليأس ، وفتح باباً من الرجاء أغلقه القنوط . فمالت عليه مذهولة حيرى بعد أن أثار فيها حباً قديماً كان يساورها في اليقظة والمنام ، وهاج في نفسها وجداً كامناً لم تفل من حدته الأيام ، ثم أخذت تتمم ورأسها على كتفه قائلة :

— حبيبي . ماذا جدد لك ؟ لقد كنت ألقاك قبل اليوم فلا أجد فيك تلك النشوة ، ولا أحس لقلبك بهذا الحفطان الذي كأنه صدى وجيب قلبي .

— كنت أكظمه يا صدوف ، وكنت أربأ بمروعتي أن أمد يدي إلى طعام غيري ، ولكن لكل شيء طاقة ، وقد عجزت طاقتي ، وناء صبري بأن يحتمل أكثر مما احتملت ، ولا بد للماء في مرجل أن يفور ، وللسيل المحتبس أن يخترق ما أمامه من

جنادل . لقد بعثك يا حبيبة قلبي في ساعة جنون ، ولم أعرف الهدوء منذ ذلك الحين ، ولكنى كنت أخاف أن أظهرك على ما في نفسي فأجدد لك شوقاً وحزناً أنت عنهما في غناء . ثم انكب عليها يقبلها في ظمأ ونهم ، ويهمس في أذنها بما يلقى من العصابة والهجر . فأحاطت وجهه بيديها الرخصتين وهي تقول : ليتنى أعود إليك يا حبيبي . هل من سبيل ؟ فأطرق كالمفكر وقال :

— ليس من سبيل إلا أن يبيعك لي الوليد .
 — إنه كثير النفور مني ، متعجن عسوف ، ولكنه شديد البغض لك ، وهو يؤثر أن يبيعني لمجوسى ولا يبيعني لك ، ولو وازنتنى بالذهب .

— إذألم يبق من سبيل .
 — إننى لا أستطيع الحياة بعيدة عنك يا حبيبي .
 — ويل للوليد . إنه سد منيع بين قلبين .
 — سد من فولاذ .
 — أنستطيع أن نحطم هذا السد ؟
 — كيف يا حبيبي ؟

— إن الحديد بالحديد يفلح ، بهذا الحنجر . ثم قذف بالحنجر فسقط في حجرها ، فقامت مذعورة وقد تفتحت

عينها ، وارتعشت يداها ، وأدركها ما يدرك النساء ساعة الوهل
من الدهول وارتجاف العصب . ثم همست والكلمات تتعثر بلسانها :

— تريد أنه يقتل ؟

— نعم يقتل ، لأن الحب لا يقف في طريقه شيء .

— لا يا حبيبي ، دعني من القتل وذكر الدماء . ونخذ في
وسيلة أخرى .

— ليس أمامي شيء غير القتل ، ولو واثني الفرص كما
تواتيك ما توانيت لحظة عن قتله .

— كما تواتيني ؟ أتريد أني أقتله أنا ؟

— ولم لا ؟

— لا ، إنني أؤثر أن يقتلني الحب على أن أمد يدي لقتل
رجل أعيش تحت سقف داره .

— تعيشين تحت سقف داره ذليلة منبوذة . تعيشين تحت
سقف داره وتركينه ينام ملء عينيه هائناً سعيداً ، وحبيبك يتقلب
دنفاً حزيناً على فراش من سهاد . تعيشين تحت سقف داره
وتتخرجين من قتل رجل يقتل نفسين في وقت معاً . إنني لن
أعيش طويلاً إذا ظلت هذه الحال ، ولن تمر أيام حتى تذرفي
الدموع على شهيد قتلته حبيبته ، لأنها لم تقتل قاتله .

— إن القتل أكبر الجرائم إثماً عند الله والناس .

— ألا يقتل بعض الناس بعضاً في الحرب فرحين
متفاخرين ؟

— ذلك في ميدان الحرب يا حبيبي .
— إن الوليد يحاربني ويحاربك بسلاح مسموم ، فيجب
أن ندفع عن أنفسنا ، وأن نقتل قاتلنا .
— ولكني لا أقتل أحداً .

— إذا لم تقتليه فخير لي أن أقتل نفسي ، ثم وثب نحو
الخنجر فدفعته عنه مذعورة وصاحت : لا تفعل يا حبيبي ،
وقل ما شئت فإنني لك سمع وطاعة . فارتدى على وسادته كالمجهود
ثم قال :

— إن الأمر أهون ما يكون ، إن الوليد ينام وحده ، فإذا
هدأت الأصوات ، ونامت العيون ، ولم يبق من الليل إلا أقله ،
تسللت إلى حجرته كأنك الطيف الطارق ، أو الظل الساري ،
فأغمدت هذا الخنجر في صدره وهو نائم ، دون أن تسمع لك
نأمة ، أو تحس حركة ، ثم عدت فغسلت يديك ، ونمت
مطمئنة هادئة . فإذا جاء الصبح وعلم الأمر ، سهل أن يتهم
بقتله أحد خدمه ، وبينهم رسم الفارسي الذي هو جاسوس
عليه من خراسان . ثم ناولها الخنجر فخبأته تحت ثيابها وخرجت
من لدنه مضطربة ذاهلة كأن بها مساً من جنون .

ولما بلغت القصر لمحها ابن رقية ، وقرأ بعينه البلاء ما على
وجهها من خوف وحذر ، ورأى في اضطراب مشيتها ، وفي
حديثها الداهل المتعثر ما يريب ، لأن المسكينة على ما بذلت
من جهد ، لم تستطع أن تكبت ما يجيش في صدرها من أمواج
الدسيسة . لمحها أبو رقية فأخذ يغالط نفسه ، ويتهم عينيه ،
ويلوم عقله المختبل على إساءة الظن بفتاة قد يكون عصف بها
مطل حبيب ، أو فراق خليل . ثم إنه يعرف بصورة مبهم أن
الوليد ينأى عنها بحبه ، ويخص بغرامه سعاد الكوفية ، فلعل
ثورة من الغيرة طافت بها في هذه اللحظة ، والنساء لغز معقد
لا يهتدى إلى حله ، وتيه مضلل تدور فيه ولا تخرج منه ،
ولكنه رجع إليها البصر فلمع نتوءاً لا يكاد يرى عند أعلى فخذها
اليمنى ، فعاوده الشك وتملكته الحيرة : أتخفى صدوف شيئاً
تحت ثيابها ؟ ولم تخفيه إذا لم تقصد شراً ؟ وما هو ؟ ولعب
الشیطان بعقله ، وتزاحمت هواجسه ، فصمم على أن يتابع
حركاتها دون أن تشعر ليرى إلى أى مدى تنهى ، وجاء المساء ،
وانصرف أهل القصر إلى شىء من اللهو والطرب كعادتهم ،
وصلى الوليد العشاء الآخرة بعد أن مر هزيع من الليل ، وتحين
أبورقية غفلة العيون فدلف إلى حجرة نوم الوليد واختفى تحت
سريره ، ثم ذهب الوليد لينام ، وأوى من بالقصر إلى مضاجعهم ،

ولما سكنت الأصوات ، ولف القصر ضرب من سكون الموت بعد أن كان يضطرب بضجيج الحياة ، وأوشك الليل أن يجمع الرحيل ، قامت صدوف من مرقدتها خائفة مرتعشة ، ولكنها استعانت ببقية من مذخور عزميتها فأسرعت الخطا في حذر وترقب ، حتى بلغت الحجرة فدخلتها ، فسمعت تنفس الوليد هادئاً فأدركتها رجفة ، ولكنها لم تأبه لها ، وتقدمت والحنجر في يمينها ، وسمع أبو رقية خطواتها فتزحزح ليخرج من تحت السرير ، فرأى صدوف ويدها تمتد بالحنجر إلى صدر الوليد ، فوثب من مكانه وقبض على يدها بقوة ليست في طوق البشر ، وذعرت الفتاة للمفاجأة فصرخت وقذفت بالحنجر ، ودهمتها موجة جارفة من البكاء والنحيب واستيقظ الوليد فدهش لما رأى وصاح :

— ما الخبر يا أبا رقية ؟

— شيء تافه ، فتاة تريد أن تنافسني في الحنون .

— قل لي ما الخبر قبل أن أكون مجنوناً ثالثاً .

— سلها يا سيدى . وكان من بالقصر قد تيقظ للجلبة

والصباح ، فهرع الجوارى والخدم إلى حجرة الوليد ، وجاءت

أمه ترتعد من الخوف ، حتى إذا رآته رمت بنفسها بين ذراعيه

وهي تجهش بالبكاء ، وقبض الوليد على ذراع الجارية وقال :

— قولي ماذا كنت تقصدين بهذا الخنجر؟ فأجابت بين
الشهيق والعويل :

— كنت أقصد أن أقتلك .

— ولم تقتليني يا فتاة ؟

— ذلك سر أطويه لنفسي .

— هل أغراك أحد بقتلي ؟

— لم يغرنى أحد . فازداد غيظ الوليد ولكنه كبج غضبه
وأمر سبرة أن يحبس الفتاة وألا يمسه بسوء ، ثم التفت إلى أمه
وهو يقول مشيراً إلى أبي رقية :

— لقد أنقذني هذا المجنون .

— إنه ليس بمجنون يا بني . إنه إذا أراد كان أعقل
العقلاء . حيالك الله أبا رقية ! لقد نجيت ولدي .

— لعل من أكبر علامات جنوني أنني أهتم دائماً بهذا الوليد
الذي لا يساوي جناح بعوضة . فضحك الوليد وقال : الآن عاد
إليك الجنون . قل لي بالله : كيف وصلت إلى حجرتي ؟
— لقد ارتبت في أمر الفتاة منذ الصباح ، وجمال في نفسي
أنها تريد بك شرّاً لا أدري لماذا ، فأختبأت تحت سريرك قبل
أن تنام ، وقد صدق ظني ، وتحققت وسأوسى . فقالت أم
الوليد : هذه مؤامرة من أعدائك حرّكت ساعد الفتاة بالخنجر ،

فاحذر يا بني فإنك تمشي فوق أرض ملئت بالفخاخ !
وانتهت الحادثة ، ومرت أيام وأيام ، وعرف ابن عنبسة من
اختفاء صدوف أن المؤامرة لم تفلح .

وفي أحد الأيام خرج الوليد للصياد مع فريق من ندمائه ،
وبينما كان يعدو بفرسه « السندى » خلف غزال ظهر فارس من
عبيد بني أمية كان مختفياً خلف أكمة ، فلمحه الوليد وهو
يصوب إليه سهماً فراغ منه ، فرماه بثان وثالث فأخطأه ،
وعجل الوليد فدار ووثب عليه بالسيف فأطاح رأسه وقال :

ألم تر أنى بينما أنا آمن يحب بي السندى قفراً فيافيا
تطلعت من غور فأبصرت فارساً فأوجست منه خيفة أن يرانيا
ولما بدا لي أنما هو فارس وقفت له حتى أتى فرمانيا
رمانى ثلاثاً ثم إني طعنته فرويت منه صعدتى وسنانيا
وقد علم الوليد بعد هذه المخاتلات المتكررة أن حياته
أصبحت في خطر داهم ، وأنه إذا نجا مرة وأخرى فلن ينجو في
كل مرة ، وتحدث مع أمه وندمائه في الأمر ، فعقدوا العزم على
أن يفر بنفسه في البوادي ، وأن يتنقل بين المنازل والمناهل فلا يعلم
مستقره إلا أخلص خالصاته ، فهجر دمشق مع بعض جواريه
وأصحابه ، وخلف كاتبه عياض بن مسلم بالرصافة ليكون له
جاسوساً على هشام ولينبئه بأخباره .

ونزل على ماء يسمى « الأغدف » بعمان بين أرض بلقين
وفزارة ، ونسى الناس بدمشق الوليد ، وأطرقت أفاعي أعدائه
إلى حين .

ومرت أيام وشهور على الوليد وهو يعاني الهم والضيق ، وينتقل
بين أحياء العرب كالطريد المنبوذ ، في خشونة لم يتعودها ،
وجفوة ليس له بها عهد .

وفي ليلة الأربعاء لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة
خمس وعشرين ومائة ، أحس هشام ضيقاً في صدره واختناقاً ،
فأخذ يئن أنيناً ، ويدلى رأسه من النوافذ ليلتقط بعض النسيم ،
ويهمس في ضعف ويأس : هذه الذبحة ! هذه الذبحة ! لقد
عاودتنى ، ليس لي منها نجاة هذه المرة . مروا فيروز يحضر
دواء الذبحة فإني ما أراني إلا مائتاً .

وأسرع فيروز فأحضر الزجاجة ولم يكن بها إلا ماء ملون ،
فجرع هشام منها مرات فلم تفده شيئاً ، واشتد به الداء فآلئى
رأسه على الوسادة ، وأخذ يردد أنفاساً قصاراً .

وعلم عياض بن مسلم بمرضه وإشرافه على الموت ، فأسرع
ونخم على خزائن الأموال ، وأمر خزانها أن يحتفظوا بما في أيديهم ،
وآلا يخرجوا من خزائهم شيئاً ، وإلا كان جزاؤهم الموت .

وأفاق هشام من غشيته فطلب مروحة من بيت المال يجتذب بها

بعض الهواء إلى صدره ، فقبل له : إن الخزائن مقفلة موصدة ،
 فزفر زفرة قصيرة ثم قال بصوت يراحمه الموت : « أرانا كنا خزاناً
 للوليد » ثم مات . وحينما هم أهلُه بغسله طلبوا قميصاً ليسخن
 فيه ماء الغُسل ، فقبل لهم : إن الخزائن مقفلة موصدة ، فاستعاروا
 قميصاً من الجيران ، ثم طلبوا له كفنّاً فقبل لهم : إن الخزائن
 مقفلة موصدة ، فكفنه أحد عبيده من حرّ ماله .
 وهكذا يموت من ملك الدنيا ، ودانت له الأرض ، فلا
 يجد إناءً لماء غُسله ، ولا يجد كفنّاً فيكفنه العبيد . فسبحان من
 له الملك الدائم والعزة التي لا تبديد !

ضحك وبكاء

أقام الوليد طويلاً بالصحراء حتى جفاها وجفته ، وأسأماها
 بالشكاية وأسأمته ، وبينما كان جالساً ذات يوم إلى ندمائه وهم
 يتحدثون في دمشق وليالي دمشق وما فيها من إشراق ومتاع ،
 إذ طاف به خيال سلمى فاستبد به شوقه ، واشتد إليها حنينه ،
 وصاح : لقد انقطعت الرسل بيني وبينها ، وأصبحت لا أطيق
 لهذا البين احتمالاً ، ولا عليه صبراً . ليت شعري أين الآن
 وجهها ؟ وماذا تفعل الآن بعدى ؟ ألا تزال راعية لعهدى حافظة

لودى ؟ أنحشى أن يكون ابن عنبسة قد وجد إليها الطريق
 ذلولاً ، وأنحشى أن يكون أبوها قد تغلب على عنادها ودفعتها
 إلى قبول هذا العتل الزنيم زوجاً . ثم تأوه وزفر وطلب إلى عمر
 الوادى أن يغنى :

طاف من سلمى خيال بعد ما نمت فهاجا
 قلت عد نحوى أسائلك عن الحب فعاجا
 بفلاة ليس ترعى أنبتت شيحاً وحاجا^(١)
 فغنى الأبيات بصوت حزين بكى له الوليد وبكى له من
 معه ، ثم عاوده الفرع فجأة وطلب إلى أبي كامل أن يغنى :
 أصبح اليوم وليد هائماً بالفلوات
 ابعثوا خيلاً لحيل ورماة لرماة !
 فلما سكت أطرق الوليد طويلاً ثم اتجه إلى عبد الصمد
 ابن عبد الأعلى وقال : أما لهذا الليل من آخر يا ابن عبد الأعلى ؟
 أما آن لهذه الغمرات أن تنجلي ؟ لقد طالت مدة هشام حتى
 مللت انتظار يومه ، وكأنه يريد أن أسبقه إلى الموت .
 فقال عبد الصمد : رفقا بنفسك يا مولاي فإني أرى في ظلمات
 الغيب نوراً يأتلق ، وأسمع في صدري همساً يبشر بالفرح القريب :
 ألم تر للنجم إذ شيعاً يبادر في برجه المرجعاً ؟

فقلت وأعجبنى شأنه وقد لاح إذ لاح لي مطمعا
 لعل الوليد دنا ملكه فأمسى إليه قد استجمعا
 وكنا نؤمل في ملكه كتأميل ذي الجذب أن يمرعا
 عقدنا له محكمات الأمور ر طوعاً ، فكان لها موضعاً
 فاهتز الوليد للشعر وقال : حياك الله يا ابن عبد الأعلى ! ألا
 تزال تؤمل في ملكي كتأميل ذي الجذب أن يمرع ؟ إذا فلتؤمل
 طويلاً ، ولتصبر طويلاً ، فإن بينك وبينه سداً من صخر
 وجنادل يسميه الناس هشاماً ، ثم وجه الحديث إلى المنذر بن
 أبي عمرو فقال : أتعرف يا ابن أبي عمرو أن ليلة لم تأت على منذ
 عقلت عقلي أطول من ليلة الأمس ؟ لقد عرضت لي فيها هموم ،
 وحدثتني فيها نفسي بأمور ، وأخذت أفكر في هذا الرجل الذي
 شردني وتجرد لإيذائي ، فاركب بنا نتنفس فقد كدت أضيق
 بكل ما حولى . فركبنا حتى إذا سارا ميلين وقف الوليد على
 كتيب ، وأعاد الكلام في هشام ، وفي الشكوى من هشام ،
 وبينما هو يعدد أفاعيله ، إذا رجلاً على البريد مقبلان ، أحدهما
 مولى لأبي محمد السفيفاني ، والآخر يدعى جردبة ، فلما قربا أتيا
 الوليد يعدوان حتى دنوا منه ، فسلما عليه بالخلافة ، فدهش
 الوليد وتماكه ذهول كاد يسقطه على الأرض ، فجعل جردبة
 يكرر السلام عليه بالخلافة ، وهو مشدوه يفتح فمه ولا يستطيع

الكلام ، ثم جاهد حتى ملك نفسه وقال :

— ويحك ألمات هشام ؟

— نعم يا أمير المؤمنين . فصاح الوليد : صدق الله العظيم « حتى إذا فرحوا بما أتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » .
اكتب يا ابن أبي عمرو إلى العباس بن الوليد أن يأتي الرضافة ويحصى ما فيها من أموال هشام ، وأن يسجن أولاده وعماله وخدمه ، ثم قال :

طاب يومى ولد شرب السلافة إذ أتانى نعى من الرضافة
وأتانا البريد ينعى هشاما وأتانا بخاتم للخلافة
وأمر من معه بالرحيل إلى دمشق ، ودخل المدينة في موكب
حافل وهو فوق فرسه « الرائد » ، وقد لبس خلع الخلافة ،
وقبض على عصاها ، ووضع فوق رأسه عمامة بها ياقوتة حمراء
بقدر الكف قبلتها أشعة الشمس ، ثم ارتدت عنها فأرسلت بريقاً
وألواناً تتخطف العيون . وحف به ندماءه وكتابه وعماله وكبار
أهل رأى من بنى أمية ، واصطف الناس وتزاحموا على الجانبين ،
ورددوا صيحات الفرح والاستبشار بالخليفة الشاب ، ونثر أمامه
النشأ الدنانير والدرهم ، فانكب عليها الناس في هرج وشه كما
تنقض سباع الطير على فرائسها ، ومشى المغنون وهم ينقرون
الدفوف ويعزفون بالطناير ، وكان أشعب يرقص أمامهم رقصات

عجيبة يتلوى فيها جسمه كما يريد ، كأنه خلا من العظام ،
ويرسل النكات سافرة ومحجبة لا يبالي من يقذف بها .
وبلغ الموكب قصر الخلافة ، وجلس الوليد على عرش آبائه
بعد أن طال إليه اشتياقه وكاد يدركه اليأس منه ، وتقدم
صناديد الأمويين وعظماؤهم يبايعونه ويسلمون عليه بالخلافة ،
وبايع الناس جميعاً ، وطارت إليه الرسل من أقصى الأرض
بالبينة والتهنئات ، وجال بخاطره وهو في هذه النشوة الساحرة ،
وذلك العز الشامخ ، بيت من الشعر قالت له لسيان بن عبد الملك
إحدى حظاياه :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى

غير أن لا بقاء للإنسان !

فغام وجهه وزاغ بصره ، فhez رأسه هزاً عنيفاً ، كأنه يريد
أن يطرد عنه طائر التطير ، ثم أمر ابن عبد الأعلى أن يدعو
إليه سعيد بن خالد . وقدم عليه في هذه الأثناء وفد الشعراء
وكان في مقدمتهم يزيد بن ضبة ، وهو شيخ جاوز السبعين ،
دخل يتوكأ على عصاه فهنا الوليد بالخلافة ، وانكب على
رجليه يقبلهما ، وكان ابن ضبة في أول عهده منقطعاً إلى
الوليد ، فلما أفضت الخلافة إلى هشام فرمن وجهه إلى الطائف ،
وحين رآه الوليد فرح به وهش للقاءه وأدناه ، وقال لحاشيته :

هذا طريد هشام لصحبته إياي وانقطاعه إلى ! هات يا ابن
ضبة ما عندك . فأنشده قصيدة منها :

سَخا بالذهب الأحمر — وزناً بالقناطير

كرم العود والعنصر — غمر غير متزور

فطرب الوليد للشعر ، وأمر بأن تعد أبيات القصيدة وأن يعطى
بكل بيت ألف درهم ، وكانت خمسين بيتاً . ثم أمر كاتبه عياضاً
أن يجرى عطاء دائماً على عجرة أهل الشام من الشيوخ والمرضى
والعميان والفقراء المعدمين ، وأن ينحصر كل واحد منهم بخادم ،
وأمره بأن يزيد في عطاء كل صاحب عطاء عشرة دنانير ،
وأن يصل بأعطية أهل الشام إلى ضعف ما كانوا يأخذون .

ثم طلب منه أن يكتب إلى نصر بن سيار عامله على خراسان ،
أن يسير إليه مع وجوه أهل خراسان ، وأن يحضر معه برابط
وطناير ودفوفاً وأباريق من ذهب وفضة ، وأن يجمع كل صنّاجة
يقدر عليها ، وكل باز ، وكل برذون فاره . ثم أطرق قليلاً
وقال :

وعليك أن تحصر علماء الحديث والقرآن بالشام والمدينة ،

ثم تجرى على كل واحد منهم مائتي دينار في العام .

والتفت إلى ابن سهيل وقال : وأنت يا ابن سهيل مر كبير

شرطتي أن يقبض على يزيد بن عنبسة وسليمان بن عبد الملك

وعمر بن الوليد والزهرى وأبناء القعقاع ، وأن يزج بهم في سجن
الظلام ، فقد كنت أحن إلى اليوم الذى أشفى فيه نفسى منهم .
وما كاد ينهى من أوامره حتى وصل سعيد بن خالد فاستأذن
فأذن له ، فدخل وهو يرتجف من الخوف ، فقبل يد الوليد
وهناه بالخلافة . فقال الوليد :

- أقبل على يا ابن خالد ، فإن بيننا حساباً عسيراً .
- لقد سعدت الدنيا بك يا أمير المؤمنين وسعد الناس .
- وهذا يوم صفاء يجب ألا يكدر بذكر الماضى .
- صدقت يا ابن خالد ، ولكنك كنت على إلباء مع هشام ،
- ولو شئت أن أنتقم لفعلت ، ولكن شفيعاً لا يرد يأتى دونك
- ودونى ، فيرد عنك يدى ، ويغمد سيفى . كيف سلمى ؟
- هى بخير تقبل يدى أمير المؤمنين وترجو رضاه .
- ترجو رضاه ؟ ولقد لبثت شهوراً بائع ثياب الأتيس
- منها كلمة رضا ! والآن وقد أصبحت أمير المؤمنين أتقبل أن
- تزوجنيها ؟

- هى خادمة لأمير المؤمنين ، فوثب الوليد من مجلسه وثبة
- عصبية ، وصاح فى أصحابه : أعدوا كل شىء للغروس .
- وكان عرساً لم تر له دمشق مثيلاً ، تألقت فيه الأنوار ، ومدت
- الموائد ، ونثرت الدنانير والآلى ، وتواترت فيه الهدايا من كبار

الدولة وعمال الأمصار ، ولم يبق عود ولا طنبور ولا دف في
المدينة إلا أطلق العنان للألحان ، ولم تبق راقصة ولا شادية إلا
عرضت من فنونها ما يثير الوجدان ويعجز البيان ، ولعبت نشوة
الفرح بالرهوس فسالت الأعطاف وجمد اللسان ، وعرض أشعب
الآعيبه وفنونه بين ابتسامات الشيوخ وضحكات الحسان ،
واخترق الوليد الجمع الحاشد وهو يصيح في غير مبالاة :

أولا تخرج العرو س فقد طال حبسها !!

قد دنا الصبح أو بدا وهي لم يُقَضْ لبسها !

وبعد قليل تحققت أمنيته وابتسم له القدر العابس ، وزفت
إليه حبيبة قلبه وريحانة حياته ، بعد أن ضرب الدهر بينه
وبينها ، وكاد اليأس يقضي عليه وعليها .

وكانت سلمى في برد شبابها زينة شبابها ، وزهرة أترابها ،
جسم رخص ريان ناصع البياض كأنما صيغ من صافي الدر
أو سبيك اللجين ، وقامة مياسة يزيد لها العجب حسناً ولدانة ،
وصدر ممتلئ رجراج كأنه الزئبق يفر من البنان ، ووجه تأنقت
يد القلرة في تكوينه وتلوينه فجاء صورة للجمال البارع
الذي حاول وصفه كل شاعر فنّد عن أوزانه ، وخطر لكل رسام
فأبى على ألواحه وألوانه ، جبين يتألق كأنه الصباح الباسم ،
وعينان فيهما سحر وفيهما خمر وفيهما كل ما يثير الفتنة ويعبت

بالعقول ، وأنف عربى أموى فيه الشمم وفيه العزة وفيه الجمال ،
وفم ياقوتى يبسم عن درر لم تظفر بمثلها صدقات البحار .

جلست سلمى إلى جانب الوليد فتشاكيا البعد ، وتبادلا
الوجد ، وشربا من رحيق الحياة أكوابه صافية مترعة ، ومرت
بهما ساعات هنيئات أطلق الدهر الغادر لهما فيها العنان ،
ومد الحب عليهما الظلال ، فمن عناق إلى عناق ، ومن قبلات إلى
أشواق ، ومن ضحكك إلى بكاء هو الضحك ، ومن مزاح إلى
جد هو المزاح ، حب وملك ونشوة وشباب وجمال فماذا بقى
من صنوف النعيم ؟ وماذا تخلف من نضارة الحياة ؟ حقاً إن
السعادة لو طمعت فى أكثر من هذا لكانت بطرة ملولا !

ومضى سبعة أيام والعاشقان يتساقيان كؤوس الحب ،
ويتراشفان رضاب الغرام ، وترك الوليد شؤون الدولة تسير كما تريد
أن تسير ، أو تقف كما تريد أن تقف ، وانفرد بحبيته فى ناحية
من قصره كما ينفرد طائران فى وكن ، وجعل بينه وبين صخب
الحياة وضجيجها وآلامها ودسائسها حجاً مستوراً . لم يخطر
بباله تألب العاوين ، ولا مؤامرات العباسيين ، ولا تدمير
الأمويين ، ولا تلك الثورات التى أخذت تشعل فى أطراف
الدولة . الدنيا عنده سلمى ، والحياة سلمى ، وكل جميل فى هذا
الوجود ليس إلا سلمى . وطالما كان يقول ، وطالما كان يردد !

أنا في يمنى يديها وهي في يسرى يديته
 إن هذا لقضاء ليس عدلاً يا أخيه
 لنت من لام محبا في الهوى لاقى منيته
 فاستراح الناس منه ميتة غير سويته !
 بقيا على تلك الحال سبعة أيام ، وجاء اليوم الثامن فكان
 شديد الحر ، لواح الهجير ، متقد أديم الأرض ، مات فيه
 النسيم العليل ، وبعثت نيران الجحيم ، وصبت الشمس فيه
 شواظاً على جبل قاسيون فأبى أن يحمله وأشفق منه ، فرمى
 به إلى المدينة شرراً وحمماً . واغبر الجو فاخفت الأنفاس ،
 وضافت الصدور ، ولم تطق سلمى ذلك الحر اللافح ، فأمرت
 جواريتها أن يضعن لها ثلجاً في الماء ، فلما ذاب فيه قامت
 لتبرد ، فتسلبت من ثيابها ، وأخذت تصب الماء على جسمها ،
 وحين شعرت بلذة الماء وبرده والت الصب ثم والله ، كأنها
 كانت تطفئ لهيباً . ثم لبست غلالة رقيقة من الحرير ، وخرجت
 إلى أحد مشارف القصر فوقفت به طويلاً ، وما كاد يولي النهار
 حتى شعرت ببرد شديد يسرى في أوصالها ، ثم أخذتها غشية
 فسقطت على الأرض لا تحس ولا تبين ، فأسرع إليها الوليد
 فحملها إلى سريرها ، وأقبلت أمه مذعورة واجفة ، وطفق
 الجوارى يبدلكن جسمها ، وينضحن وجهها بماء الورد لتفيق .

واضطرب الوليد وأخذه البكاء واستولى عليه الهلع ، وجعل يصيح : أين الطبيب ؟ أين الطبيب ؟ اذهبوا إلى فرات بن شحناثا اليهودي . أحضروه على جناح الريح . على جناح البرق . على جناح الشيطان ! حبيبتى ! حبيبتى تموت وأنتم هنا أمامى يا أولاد الإمام !

ولم يمض إلا قليل حتى جاء الطبيب وكانت البرودة التي في جسم سلمى انقلبت حرارة متأججة ، وأخذ تنفسها يتلاحق ، وصدرها يرتفع وينخفض كأنه كير حداد . ثم اعترتها نوبة هذاء وخلاط ، فجعلت تثب من سريرها وتصيح : دعونى أذهب إلى زوجى ، أنا أعرف أنه بعمان ، لقد حال هشام بينى وبينه ، حبيبتى ! أنت لا تصلح بائع ثياب ، إن وجهك يشى بك ، إن به نبلا موروثاً ، إنه وجه ملك . أثواب وألوان للعذارى الحسان ! دعنى يا أبى من ابن عنبسة ، عم مساء يا أبى ، هاتوا حلى العروس ! مشطوا العروس ! ما هذه البئر ؟ إنها بعيدة الغور مظلمة ، لقد زلقت رجلى ، أدركونى ! أنقذونى ! ثم سقطت على السرير مجهودة لاهثة ، تطلب نفس النسيم فلا تكاد تعجده ، وغاصت في غشية لا قرار لها ، وارتفع بكاء الوليد وبكاء من حوله من الجوارى والخدم ، وأخذ يلطم وجهه كما تفعل النساء إذا حزبن الحزن ولم يجدن له متنفساً ، ومس

الطبيب المريضة وسأل عما يكون سبباً في المرض ، ثم اتجه إلى الخليفة مكفهر الوجه حزينا وقال : إن هذا المرض في الرثتين يا أمير المؤمنين ، وقد سببه صب الماء البارد ، ثم التعرض للجو في غلالة رقيقة ، وهو مرض قوى الحملة ، شديد الوطأة ، ولكن الله يشفي ما هو أشد منه وأعضل . وداؤه الدفء والأشربة الساخنة ، ويجب ألا تخاطب المريضة وهي تهذى وإلا اختلط عقلها ، وإذا احتملت مولاتي هذا المرض خمسة عشر يوماً نجت وزالت أسباب الخوف ، وإني يا أمير المؤمنين مستبشر خيراً ، راج في وجه الله الكريم ، وسأعد لمولاتي دواء ، وسأتردد في كل يوم مرات ، مسح الله السوء عن مولاتي ، ولا أحزن قلب أمير المؤمنين !

وانصرف الطبيب ، ومر يوم وثان وثالث والمرض يستشفى ، والآمال تتضاءل ، حتى إذا كان اليوم السابع هدأت المريضة وسكن صدرها من الحفقتان ، فاستبشر الوليد وأرسل صبيحة فرح دوت في جوانب الحجرة ، وكادت تهز الكلة التي ضربت فوق سريرها ، ثم أخذ يداعبها ويدللها ويقول : لقد شفيت يا حبيبتي وزال عنك الضر ، سأذهب بك عند ما يتم شفاؤك إلى لبنان ، إن هواءه يبرئ السقيم ، وماءه من تسنيم ، وتفاحه كفمك مسكى النفحات ، سكرى اللثامات ، أتحبين تفاح

لبنان يا سلمى ؟ حدثيني ، أتفضلينه على مشمش دمشق ؟
 قولى يا حبيبتي أيهما تفضلين ؟ مالك ساكنة ؟ أواجدة أنت
 على ؟ لا لا ، إن الوليد لا يغضب ريحانه حياته ، بالله أجيبى
 يا سلمى !

ولكنها لم ترد عليه ، ولم تعجاذبه الحديث ، فرفع الكلة ونظر ،
 فإذا جثة هامدة ! وإذا الجمال الباهر الذى كان جمالا فى جسم
 وروح أصبح جمالا فى تمثال . فصرخ وشق ثيابه ، وأخذ يدور
 فى الحجرة كالمجنون ، ويضرب الجدران برأسه ويصرخ : ماتت
 سلمى ! ماتت سلمى ! ذهبت حياتى ! طويت آمالى ! غابت
 شمسى ! جفت زهرتى ! صوحت روضتى ! أدركونى يا عبيد
 القصر ، خذونى وادفنونى معها ، لا شأن لى بالحياة بعدها ،
 إن الحياة ليست نفساً يتردد ولكنها أمل ورجاء وحب . وكان
 أبو رقية يجلس فى ناحية من الحجرة مشدوه العينين ساهماً ،
 يرتل القرآن ترتيلاً . وقدم رجال الدولة وعم البكاء وارتفع العويل
 وطوى بساط للسرور وفرش بساط للأحزان .

وفى اليوم التالى دفنت سلمى بعد إباء من الوليد وممانعة ،
 وبعد أن شيعها بأبيات تقطع نياط القلوب ، وتستنزف ماء
 الشؤون :

ألمّا تعلما سلمى أقامت مضمّنة من الصحراء لحدا ؟
لعمرك يا وليد لقد أجنوا بهما حسباً ومكرمة ومجدا
ووجهاً كان يقصر عن مداه شعاع الشمس ، أهلاً أن يفدى
فلم أر ميتاً أبكى لعين وأكثرها جازعاً ، وأجلّ فقدا !
وعكف بعد ذلك الوليد على أحزانه ، ولم يجد تسليّة لهمومه
إلا أن يصب عذابه على من ناصبوه العداء أيام هشام ، فأحضر
سليمان بن هشام من السجن وأمر بأن يضرب أمامه مائة سوط
وأن يحلق رأسه ولحيته ثم ينفي إلى عمان ، وطلب يزيد بن عنبسة
والزهرى فقبل له إنيهما فرّا إلى حيث لا يعلم مكانهما ، فأرسل
خلفهما الجنود ليقبضوا عليهما ولو كانا في أقصى الأرض ، ثم
أمر بأن يدفع بنو القعقاع إلى عامل قينسرين ليذيقهم مرّ العذاب
إلى أن يموتوا ، ودعا عياضاً كاتبه وطلب منه أن يكتب إلى
يوسف بن عمرو والى العراق بقتل خالد بن عبد الله القسرى ،
وهكذا كان يقضى الوليد نهاره في تعذيب وانتقام ، وليله في
تطريب وأنغام !

واجتمع أهل الدعوة بخراسان عند ما وصلت إليهم أنباء
الوليد وأحاديث لوه وظلمه ، ورأوا أن دولة الأمويين تخطو
حشيئاً إلى الزوال ، وأن من الحكمة أن ينتظروا بإظهار دعوتهم

قليلاً حتى تجف الثمرة فتسقط وحدها ، لأن عبث بني أمية وحده سيزيد في كراهية الناس وانصرافهم عنهم ، وبذلك يسهل ثل عرشهم ومحو سلطانهم ، واستبشر الدعاة بالوليد خيراً فزادت قوتهم وتجددت آمالهم ، وظهرت منهم بوادر رآها نصر ابن سيار عامل خراسان فتوجس الشر ، وأحس بسوء المصير ، وكتب إلى الوليد :

أرى خال الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام !
 فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب أولها كلام !
 فقلت من التعجب : ليت شعري أيقاظ أمية أم نيام ؟ !
 فلما قرأ الوليد كتاب نصر كتب في أسفله :

بل نيام يا ابن البلهاء ! لقد أقطعك أمير المؤمنين خراسان
 هبة فاعمل بها ما شئت ، فإنه مشغول عنك وعن خراسانك !

قتل ودمار

ومرت شهور والوليد يشفي نفسه في كل يوم بانتقام جديد حتى خافته خاصة الناس وسئمتهم عامتهم ، ولقد فرح الناس لتوليته أول الأمر لما أغدق من العطايا والنعم ، ولما بذل من المواهب واصطناع

المعروف ، بعد أن عانوا أيام هشام عهداً شحيحاً يحاسب فيه الخليفة على الدائق ، ولا يثيب إلا على عمل . ولكن الوليد لم يستطع أن يمد يده بالعطاء في كل حين ، ولم يكن له من الخلال ما يحمل الناس على حبه وإجلاله ، فتحولت عنه قلوبهم ونالت منه ألسنتهم . ولكل دولة في أول عهودها بهجة وإشراق ، يستقبلها الناس فرحين مستبشرين ، وهي تستقبل الناس بالوعود وبذل الرغائب ، فإذا ذهبت جدتها ولم تواصل إحسانها انصرفوا عنها ساخطين شاكين وهم يتحسرون على العهد القديم ، وينطلقون إلى فجر يوم جديد .

واجتوى الوليد دمشق واجتوته ، وكره لقاء الناس وضجروا به ، فرحل إلى « الأغدف » بعمان وسار في ركابه كثير من خدمه وندمائه . وكان الوليد خلقاً عجيباً فقد كانت له نفس واحدة استطاعت أن تنقسم أنفساً ، فكانت له نفس باكية حزينة ، ونفس مريحة ضحوك ، ونفس تقية خيرة ، ونفس عارمة صاخبة ، وكانت كل نفس من هذه الأنفس تظهر فجأة على غير إدارة من صاحبها ، وتطالع الناس متناوبة متعاقبة كما تدور كرة حول محور ، فكثيراً ما اتصل منه الضحك بالبكاء ، والخير بالشر ، والقوة بالضعف ، وكان الناس لذلك منه دائماً

في وجل وخوف ، لا يدرون ماذا تكون اللحظة التالية للحظة الحاضرة .

ذهب إلى الأغدق وأعاد فيه مجالس أنسه ومجالى صبوته ، وكأنه لم يعشق مرة سلمى ، ولم ينكب بموت سلمى ، ولكن خيالها كان يطوف بنفسه في لحظات متقطعة فيبكي بين رنين المزاهر ودقات الصنوج . وتنفست دمشق الصعداء لفراقه ، ومد فيها الساخطون رعوسهم إلى الفتنة ، وعاد إليها كثير من الفارين كأبن عنبسة وبعض بنى القعقاع وزعماء اليمنية . وفي ذات صباح التقى جمع منهم بدار شبيب بن أبي مالك فتذاكروا في شأن الوليد ، وأنه إذا امتد عهده لم يبق منهم أحداً ، ولم يترك لمجد الخلافة أثراً ، واستقر رأيهم على مبايعة يزيد بن الوليد لأنه كان يظهر التقوى والورع ويتشبه بعمر بن عبد العزيز ، فذهبوا إليه وكان بالرصافة فحدثوه بأمرهم ، وألقوا إليه بسرهم ، فأخذته الدهشة وتذكر سطوة الوليد وبطشه فطلب منهم أن يعمله حتى يستشير عمرو بن يزيد ، ثم تركهم وذهب إلى عمرو في داره وأطلعه على ما اعتزم عليه القوم فوقف عمرو وقد كان جالساً وقال :

هذا يا ابن العم أمر جسيم لن يفصل فيه إلا أخوك العباس

فإنه صاحب رأى ومعرفة ، أما أنا فرجل كثير الشكوك كثير
التقلب ، وليس لمقلب رأى .

وانطلق يزيد إلى العباس يستشير ويستهديه ، فما كاد يكشف
له عن طرف مما جاء بشأنه حتى وكزه العباس في صدره ،
وصاح في وجهه غاضباً : حقاً إنك لأشأم سخلة في بني مروان .
ووالله لولا ما أخافه عليك من حدة غضب الوليد لشدت
وثاقلك وحملتك إليه ، إن دولة بني أمية تهتز للسقوط فبالله
عليك لا تضرب فيها بمحول جديد ! وإن بها من نيران الفتن
ما تعدّ جهنم إزاءه جذوة خامدة ، فدعها أيها الغرّ ولا تزدها
نكالا ! دعها بالله وانصرف إلى شأنك . أتدرى معنى خلع
خليفة من بني مروان ؟ إن معناه أيها الأبله ضياع الدولة كلها ،
إذهب يا عدوّ عشيرته ولا تثر جرحاً لا يريد أن يندمل ، وإذا
حدثتلك نفسك بشيء مما في نفسك فاعلم أنه هو الشيطان
الحناس الذى يوسوس فى صدور الناس ، وأن غراب الفتنة هو
الذى يدفع الأشقياء إلى أن يخرّبوا بيوتهم بأيديهم :

إني أعيدكمُ بالله من فتن مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إن البرية قد ملت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا

وخرج يزيد من لدن العباس حزيناً متردداً ، ولكن

الرجبة في الملك أغرته بنبد وصايا أخيه فنفض عنه ما كان قد أصابه من يأس ، وطرح ما كان مسّه من خوف ، والتقى بجماعات الساخطين وكان بينهم يزيد بن عنبسة فبايعوه سرّاً ، ولما اجتمع له أمره قصد إلى دمشق متنكراً في سبعة من أنصاره . فنزل على الميزّة وهي من أرباض دمشق ، وقصد قُدُمّاً إلى دار معاوية بن مصاد زعيم قومه فبايعه وبايعه كثير من أهله ورجاله ، ثم رحل إلى دمشق وعزم على إظهار الدعوة ، فأرسل إلى أصحابه فكمضوا عند باب الفراديس ، ودخلوا المسجد الجامع لصلاة العشاء ، فلما أتموا المكتوبة قبضوا على من بالمسجد من الحراس وكبلوهم ، ومضى يزيد بن عنبسة إلى يزيد بن الوليد فأخبره الخبر ثم قال : قم يا أمير المؤمنين وأبشر بنصر الله وعونه ! فاتجه يزيد إلى السماء وهو يقول : اللهم إن كان هذا لك رضاً فأعني عليه وسددني له ، وإن كان غير ذلك فاصرفه عني ! وانطلق مع ابن عنبسة في دروب دمشق ، وكلما سارا خطوات انضم إليهما أعوان وأنصار ، وما جاء اليوم الثاني حتى توافدت على يزيد الكتائب يقودها مشايخها ، وهي تتحرق للقتال وترجو ما وراءه من غنائم .

وطار أحد عبيد الوليد على جواد يسابق الريح إلى سيده ،

فلما بلغ الأغدف رآه بين ندمائه وعمر الوادي ينشدهم :

أدر الكأس يمينا لا تدرها باليسار

اسق هذا ثم هذا صاحب العود النضار

من كميت عتقوها منذ دهر في جرار

وما كاد يلقى إليه الخبر حتى ثار وقذف بالحجم : وأمر
بضربه مائة سوط ثم بحبسه .

وكان بمجلس الوليد يزيد بن خالد ، وعبد الله بن سعيد ،
والأبرش الكلبي . فقال ابن خالد :

— إني أرى يا أمير المؤمنين أن تنزل حمص فإنها حصينة ،
وأن توجه منها الجنود إلى يزيد حتى يظهر لك الله عليه . وقال
ابن سعيد :

— لا ينبغي للخليفة أن يرتحل بجنوده ويدع نساءه في
أيدي أعدائه ، والله مؤيد أمير المؤمنين وناصره . فابتدره ابن
خالد قائلا :

— وماذا يخاف أمير المؤمنين على نسائه ، وقائد جيش عدوه
هو ابن عمهن عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ؟ فصاح
الوليد في غضب وسامة : لن أرحل ولن أترك أهلي ونسائي .

وأشار عليه الأبرش أن ينزل بحصن البخراء وأن يقاتل أعداءه حوله ، فأخذ الوليد برأيه ، وانتقل إليه . أما دعاة يزيد فانطلقوا ينادون في الناس : من سار للقتال مع يزيد فله ألفان ! فهرع إليه كثير من مرتزقة المحاربين .

ثم علم عبد العزيز بن الحجاج قائد جيش يزيد أن العباس ابن الوليد قادم لمناصرة الوليد بطائفة من أهله ورجاله ، فسقط في يده ، وأيقن أن شيئاً من ذلك لو تم لتفرق عنه رجاله لشدة ثقهم بالعباس ، وحبهم إياه واعتقادهم أن الفئة التي يظاهرها هي الفئة الغالبة ، لذلك أسرع فبعث منصور بن جمهور على رأس فرقة من الجند لتحول بين العباس والأصول إلى الوليد .

وسار منصور وهدّد العباس وساقه مع من معه إلى مخيم ابن الحجاج ، فلما وصل إليه أمره ابن الحجاج أن يبائع لأخيه يزيد فبايع مكرهاً مغلوباً ، ونصب ابن الحجاج راية العباس ، وأمر منادياً أن ينادى في الناس : هذه راية العباس وقد بايع لأمر المؤمنين يزيد . وما كاد أصحاب الوليد يسمعون هذا النداء حتى تفرّقوا عنه وانضموا إلى جيوش أعدائه .

ولكن الوليد كان شجاعاً مقداماً بعرويته وطبعه الموروث ، فلم يأبه لانصراف أصحابه عنه ، واعتزم أن يلتقي القوم بنفسه .

ففي أحد أيام جمادى الأولى من سنة ست وعشرين ومائة ركب
فرسه « السندى » وقذف بنفسه في حومة الحب فقاتل قتالا
شديداً ، ولكن القوم تزاحموا عليه حتى كادت تنوشه سيوفهم .
فدخل الحصن وأغلق الباب دونه ثم أخذ المصحف وجلس
يرتل آيات القرآن الكريم ، وانتحى أبو رقية ناحية من الحجرة
وأخذ يفتح عينيه ويغمضهما كأنه كان يصلى بإيماء العينين .

ووثب يزيد بن عنبسة نحو الباب وصاح قائلاً : كلمنى
يا وليد ، فلقد كنت تبحث عنى فى كل مكان ، وها أنذا قد أتيت
إليك طائعاً ، ولكنى أظنك لا تودّ اليوم لقائى . لقد حاربتنى فى
سلمى أيها الرجل فانتصر الموت علينا جميعاً واستأثر بها ، واليوم
تلقى جزاءك بما قدمت ! لا تخف يا أبا العباس فإنى لن ألقاك
ولكن سيفى هو الذى سيلقاك . فقال الوليد : لم تقتلونى لا أبا
لكم ؟ ألم أزد فى أعطيات أصحاب العطاء ؟ ألم أرفع المؤن عن
كثير من الناس ؟ ألم أعط الفقراء ؟ ألم أعطف على الزمنى ؟
فصاح ابن عنبسة : إنا نقتلك لننقذ الخلافة من يدك . فغضب
الوليد وقال : حسبك يا ابن عنبسة ، إن الخلافة أكرم على
الله من أن ينقذها مثلك . ثم عاد إلى التلاوة وهو يردد : يوم
كيوم عثمان ! فسخر منه ابن عنبسة وجبهه بمقذع السباب

وغايظ القول ، ثم وثب فوق الحائط وانطلق وراءه نفر من أصحابه ، ولما قرب من الوليد قبض على يده وكان يريد أن يأسره ويذهب به إلى القوم ليفصلوا في أمره ، ولكن رجلاً عاجله بضربة من سيفه فخر صريعاً مضرجاً بدمائه ، وتقدم ثان فاحتر رأسه ، وأشرع روح بن مقبل فحمل الرأس وطار إلى يزيد فرحاً بما يحمل . فلما وصل إلى خيمته قذف أمامه به وهو يقول : أبشر يا أمير المؤمنين بقتل الوليد وأسر من كان معه ، هذا نصر مبين مؤزر ! فسجد يزيد شكراً ، ثم التفت إليه باكياً وقال : كنت أرى منكم بدون هذا ، أما القتل فبلاء عظيم !

ودخل ابن عنبسة فاخذ بيد يزيد وقال : قم يا أمير المؤمنين وأبشر بنصر الله لك وإتمام نعمته عليك . فارتعد يزيد وقال : ويلى إذا لم يغفر الله لى ! قل لى بالله يا ابن عنبسة ، ماذا قال لكم الوليد قبل قتله ؟ فأجاب ابن عنبسة : لقد كان يقول : أما فيكم ذو حسب فأكلمه ؟ أليس منكم رجل رشيد يستمع لما أقول ؟ ولكننا أوسعناه تقريراً وتواثبنا عليه فروينا أديم الأرض بدمائه . فصاح يزيد : كفالك يا ابن عنبسة كفالك ! لقد لعمرى أكثر وأغرقت ، أما والله لا يرتق بعدها لكم فتق ، ولا يلزم

شعث ، ولا تجتمع كلمة ! إن الرءوس التي حصدها الحجاج
ابن يوسف بعد أن أينعت وحن قطفها ستثار اليوم لنفسها !
لقد حق القول على بني أمية وانهار بناؤها ، وخربت — كما يقول
العباس — بيوتها بأيديها ! وإنما أنا والوايد رجلاان المنتصر منهما
المهزوم ، والقاتل منهما المقتول !
يصاولني والسيف بيني وبينه وأقتله عمداً ، وفي قتله قتلى !

تم طبع هذا الكتاب على
مطابع دار المعارف بمصر

دارالمعارف بمطرب

تقدم للناشئة والشباب

مجموعة (مشاهير العرب)

كم في العرب من مشاهير دلوا على العبقرية والنبوغ في مختلف
مراحل الحياة ، فهناك السياسي الداهية والقائد المغوار والخليفة
العظيم ، وهناك الوزير المحنك والعالم الجهيد والأديب الحصيف
إلى غير هؤلاء وأولئك من رجال كانوا على أعظم جانب من
ملكات العقل والقلب والنفس فتركوا بعدهم مآثرات وسيراً
خلدت ذكرهم إلى الأبد .

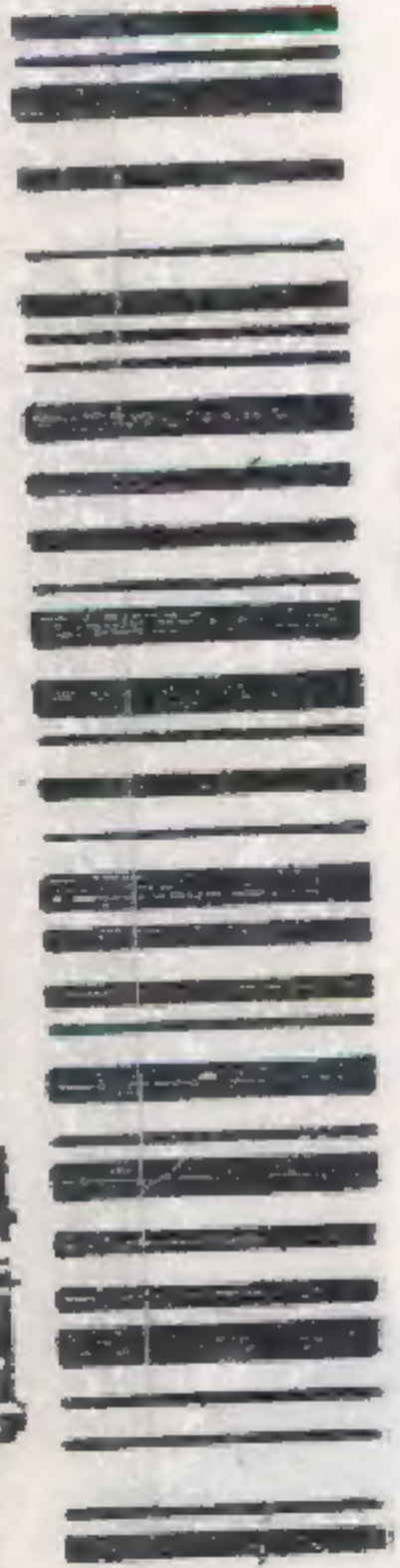
● صدر منها :

- | | |
|-----------------------|------------------|
| ١ - النعمان بن المنذر | ٥ - عمرو بن الع |
| ٢ - موسى بن نصير | ٦ - سعد بن أبي و |
| ٣ - أبو العباس السفاح | ٧ - عمر بن الخ |
| ٤ - الحجاج بن يوسف | ٨ - أبو مسلم الخ |
| ٩ - خالد بن الوليد | |

ثمان النسخة من كل كتاب ١٣ قرشاً

خذالمعارف دارالمعارف

0097



0695382

097
701
74